أولادنا

دون كيشوت

بقلم

عادل الغضبان



دار المعارف

دُون كيشُوت

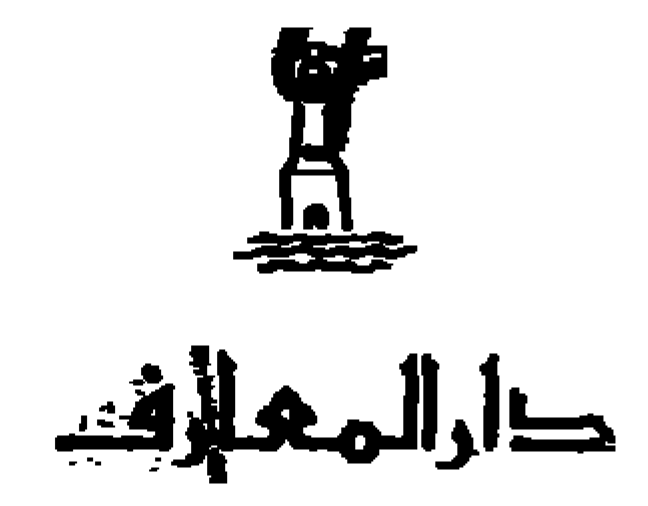
أولادنا

١٠

دُون كيشُوت

بقلم: عادل الغضبان

الطبعة السا[illegible]



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.



القسم الأول

١

كان رجل من الأشراف يعيش فى قرية من قُرى « المَنْشا » بإسبانيا ، وتقع هذه القريةُ فى بُقْعَة جَرْداءَ من إقليم قشْتالة الجديدة ولكنها غنيّةٌ بطواحين الهواء . وكان لدى هذا الرجل رمحٌ قديمة ، وتُرْسٌ يعلوه الصّدأ ، وحصانٌ هزيلٌ ، وكلبٌ من كلاب الصّيد . وكان طعامه لا يخرج فى أيام الأسبوع عن الحساء والبيض والعدس ، يضيف إليه فرخاً من الحمام فى أيام الأعياد . وكان ينفق ثلاثة أرباع دَخْله على مطعمه ومشربه ، وينفق الربع الباقى على ملبسه .

وكانت حاشيته تتألف من سيِّدة فى نحو الأربعين من عمرها تدبّر

شؤون المنزل ، ومن ابنة أختٍ له لم تتجاوز العشرين ربيعاً ، ومن خادمٍ يقوم على تنظيف المنزل والإسطبل ، ويشتغل فى فِلاحة الأرض وتقليمِ الأشجار . أما سيّد المنزل ، فكان يقارب الخمسين من عمره وكان قوىّ العضلات ، ممشوق القامة ، جافّ القَسَمات ، يُجيد الصّيد والقَنْص .

وكان يقضى أوقات فَراغه ، أى ثلاثة أرباع نهاره ، فى قراءة قصص البطولة والفروسيّة ، ويجد فيها لَذّةً ومُتْعةً صرفتاه عن الصّيد والقَنْص ، وعن إدارة أملاكه . ولقد تملّكه الغرام بتلك القصص حتى إنه باع قِطَعاً كثيرةً من أرضه ليشترى بثمنها كتباً فى الفروسيّة والبطولة ويؤلّف منها مكتبةً عامرة . وكثيراً ما كان يثور على المؤلف الذى يترك بَطَله جريحاً ، أو على الأطبّاء الذين لا يعرفون كيف يعالجون جِراحات الأبطال .

وطالما جرَتْ له مع قسّيس القرية مجادلاتٌ وأحاديث تدور كلها على المفاضلة بين أبطال القصص التى كان يقرؤها . وكان القسيس رجلاً حكيماً عاقلاً متعلماً ، يدرك أن مُحدّثه قد أصبح فريسة الأوهام والأحلام ؛ فكان يوافقه مرةً ويخالفه مرّات ، ويجتهد أن يقتلع من صدره بُذُور الأوهام والخرافات ، فإذا ضاق صدر صاحبنا به ، حاول أن يستميل حلاّق القرية إلى صفّه ليرى رأيه فى الشّجاعة والشّجعان .

وبقيت هذه الأفكار تملأ ذهن صاحبنا ، ويعيش معها فى ليله



ونهاره ، - يقرأ كثيراً وينام قليلا ، حتى جفّ دماغه وفقَد مزيّة الحكم على الأشياء ، وامتلأ ذهنه بضروب السحر والمعارك ، وصنوف الحب والعذاب ، وفنون الجنون التي كان يطالعها في تلك الكتب ، ولا يشكّ أبداً في صحّة الوقائع التي كان المؤلفون يروونها في براعة ومهارة .

وفي يوم من الأيام خطر بباله أغربُ فكرة تخطر ببال إنسان ، فخيّل إليه أن أجمل عمل يقوم به ، وأوفره شرفاً ونفعاً لوطنه ، إنما هو إحياء تقاليد الفروسيّة التائهة ، ذلك بأن يتقلّد سلاحه ، ويمتطي جواده ، ويضرب في البلاد باحثاً عن المغامرات ، رافعاً عن الناس العَسْف والظلم . فتوهّم صاحبنا المسكين ، وهو لا يزال على مقعده ، أنه دوّخ بشجاعته الممالك ، وفتح بسيفه الأقطار ، فلعبت بفؤاده الآمال ، وعزم على أن يقرن الفكر بالعمل ، فهبّ يجمع ما لديه من سلاحٍ عتيقٍ صادئ انحدر إليه من أجداد أجداده ، وكان ملقًى في أحد زوايا المنزل . فنظّفه ما استطاع ، ومسحه وصقله ، ولكن لا تسلْ عن أسفه وحزنه عند ما رأى الخُوذَة باليةً ناقصة الأطراف ، فلمع خاطرُه بفكرةٍ بارعة . وقام يصنع من الورق المقوّى تلك الأطرافَ النّاقصة ، حتى اجتمعت لديه خُوذةٌ كاملة . فسُرّ سروراً لا مزيد عليه ، وأراد أن يجرّب متانة الخُوذة فاستلّ سيفه ، واستجمع قوّته ، وأهوى بالسيف على الخوذة فحطّمها تحطيماً ، وانهار ما قضى في صنعه أسبوعاً كاملاً .

وكأنه لم تعجبه هذه الليانة فى الخوذة ، فأعاد صنعها وأحاط الورق المقوّى فى هذه المرة بقطع من الحديد جعلتها أمتنَ صنعاً، وأشد تحمُّلاً لضرَبات السيّوف، فرضى عن نفسه وعن خُوذته ، ولم يشأ أن يجرّب متانتها كما جرّب الأولى ، واعتقد أنه أصبح فى أكمل عُدّةٍ من السلاح . ثم ذهب ليرى حصانه ، ولم يكن هذا الحيوان المسكين غيرَ هيكلٍ عظميّ ؛ فبدا له مع ذلك أنه أصلب عوداً من جواد الإسكندر ذى القرنين . واستمرّ يفكّر أربعة أيام فى الاسم الذى يختاره له ، فكان يستعرض فى ذهنه الأسماء ، وكان كلما أعجبه منها اسم طرحه جانباً وفكّر فى غيره ، حتى وقع اختياره فى آخر الأمر على اسم « السّكّيت » ، فرضى به كل الرضى ، وأخذ يبحث عن اسم يتسمّى هو نفسه به ، فقضى ثمانية أيامٍ فى البحث والتّنقيب حتى هداه تفكيره إلى اسم « دون كيشوت » ولكنّه تذكّر أن الفرسان الأشراف الشّجعان ، لا يكتفون بالاسم المجرّد . بل يذيّلونه باسم البلد الذى ينتمون إليه ، فقرّر أن يسمّى نفسه « دون كيشوت دى مَنْشا » وبذلك يُشرك بلده فى المجد الباهر الذى ستغمره به الشجاعة والبطولة .

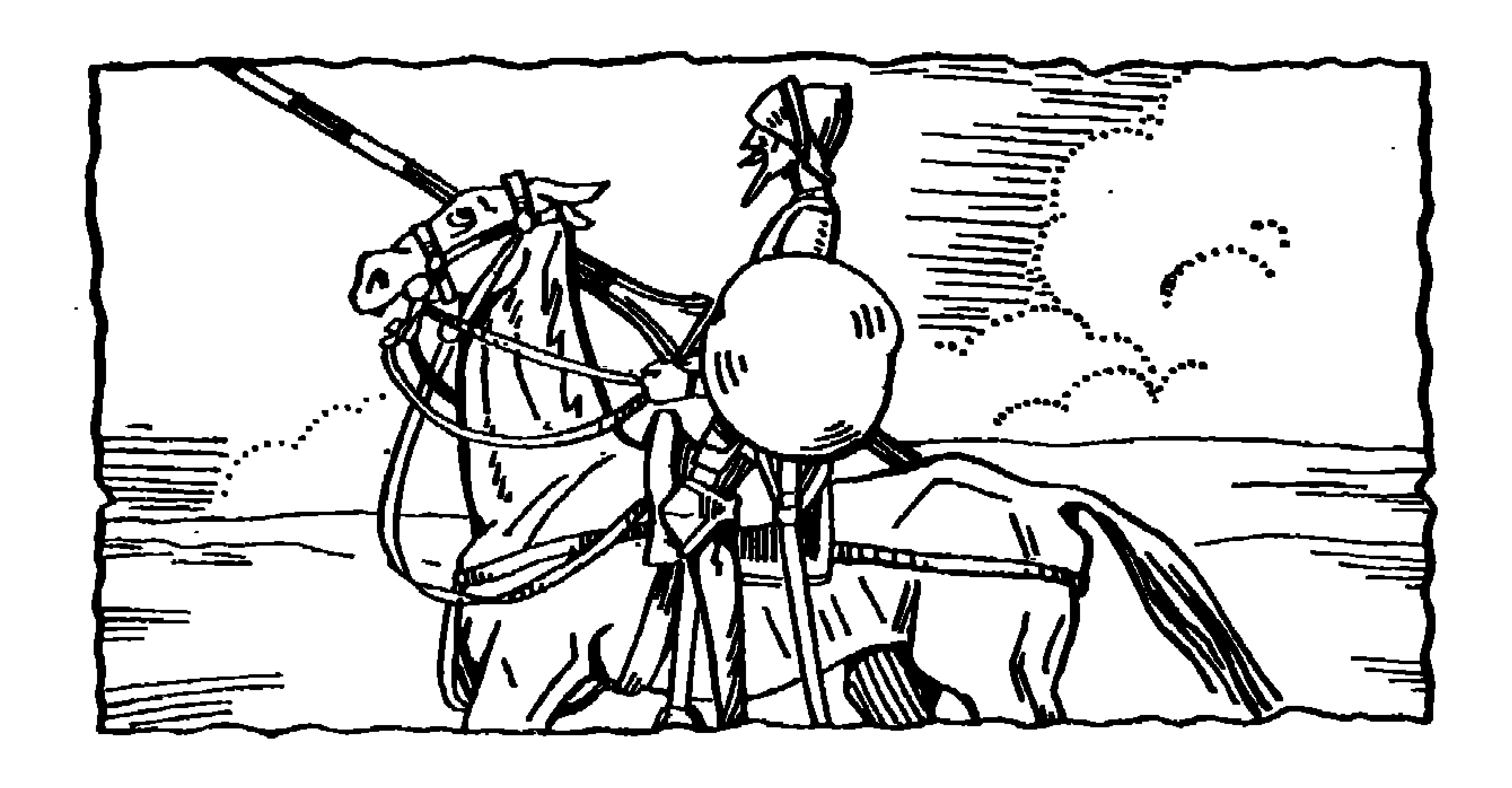
قطع فارسنا شوطاً كبيراً فى الاستعداد لمهمته العظيمة ، فسلاحهُ فى متناوَل يده ، وخُوذتُه تنتظر أن تستقرّ على رأسه ، وحصانُه صاحب الاسم الرنّان يهمّ بأن ينطلق به ، وهو نفسه يتيه بالاسم الضّخم الذى

تسمَّى به . كلٌّ هذا حسنٌ وجميل ولكنَّ ينقصه الأمر العظيم الذى لا غنى عنه لكل فارس نبيل ، وما هو إلا أن يكون له حبيبةٌ يهواها ويتدلّه فى غرامها ، ففارسٌ بلا حبٍّ شجرةٌ بلا ثمر ولا ورق أو جسدٌ بلا روح .

كان فارسنا يفكّر فى هذا ويقول فى نفسه : « هَبْنِى قابلتُ مارداً جباراً ، وهو ما سيحدث كل يوم ، فطرحته أرضاً من أوّل ضربة ، وصرعته أو حملته على الاستسلام ؛ أفلا يكون من دواعى مجدى وسرورى أن أرسله إلى السيدة التى أحِبّها فيركع عند قدميها ويقول لها فى خضوع ومذلة : "سيدتى ! إن الفارس المغوار وبطل الأبطال ، دون كيشوت دى منشا ، صاحب الصِّيت الطائر فى الشّجاعة والبطولة ، بعد أن بارزنى وصرعنى ، قد أنهى إلىّ أن آتى إليك ، وأسجد عند قدميك ، وأن أكون لك عبداً ذليلاً يأتمر بأوامرك وينتهى بنواهيك " » .

لم يكد فارسنا يفكّر فى مثل هذا التفكير ، حتى انتفخت أوداجُهُ فرحاً وغبطة ، ثم ازداد سروراً لما وفّق إلى اسم السيدة التى يبحث عنها .

ويقال إن فارسنا كان فى شبابه يحبّ فتاة جميلة تقطن فى إحدى القرى المجاورة ، ولم تكن تحفل هى بحبّه وغرامه ، فأقامها مليكةً على فؤاده ، واستبدل باسمها المعروفة به اسماً آخر يرنّ فى المسامع ويليق بفتاة من فتيات الأشراف فسمّاها : « أميرة توبوزو » وتوبوزو هذه هى اسم القرية التى كانت تسكنها تلك الفتاة .



٢

صمّم فارسنا على أن يبدأ عمله فى الحال ، وإلا عُدَّ مسؤولا عمّا يحدث فى هذا العالم من ظلم واستبداد ، ففى صباح يوم من أيام شهر يوليو ، لبس عُدّته وسلاحه ، وركب حصانه « السّكّيت » ، وأمسك برمحه ، وعلّق ترسه فى ذراعه ، وخرج من منزله لا يَلْوِى على أحد ، وسار قُدُماً حتى توغّل فى الحقول . وخطر له فجأةً خاطر كاد يرجعه إلى منزله ، ويجعله يعدل عن المهمّة الكبرى التى عزم أن يحقّقها ، فقد تذكّر أنه لم يتلقّ رتبة الفروسية من هيئة رسمية ، فلا يحق له إذن أن يحمل اللقب ، ولا أن يقاتل ويبارز على أنه فارس نبيل ، ولكن سرْعانَ

ما وجد الحلّ لهذا الأمر الذى شغل باله ، فقد آلى على نفسه أن يتلقى رتبة الفروسية من أوّل رجل يلقاه ، كما كان يحدث فى الرّوايات التى قرأها ، فهدأ باله وأرخى لحصانه العنان يسير به كيفما يشاء .

وكان فى أثناء سيره يحدّث نفسه ويستعمل العبارات والجُمَل التى قرأها فى القصص على ألسنة الفرسان والأبطال ، وكانت الشّمس ترسل إلى رأسه أشعتّها المحرقة ، فتذيب منه الدّماغ لو كان بقى له دماغ . مشى سحابة نهاره دون أن يلقى أحداً يجرّب فيه شجاعته وبطولته ، فما إن هبط المساء ، حتى كان هو وحصانه جائعين كلّ الجوع ، فتوقّف «السكّيت» عن السّير ، وأجال دون كيشوت نظره فيما حوله لعله يقع على قصرٍ أو كوخٍ يستطيع أن يلتجئ إليه ، فلمح عن بعدٍ فندقاً صغيراً، فحمد الله وأعمل مِهْمازه فى شاكِلَتى الحصان ليصل به سريعاً إلى ذلك الفندق .

واتّفق أن كان على مقربة من باب الفندق فتاتان تتحدّثان إلى بعض المسافرين ، فخيّل إلى دون كيشوت ، وكان دائماً يرى صورة ما قرأ فى الرّوايات والقصص ، أن الفندق قصرٌ من القصور الفخمة ، بخنادقه وجِسْره وأبراجه الأربعة، فتقدّم إليه ، ووقف على مسافة من الباب فى انتظار القَزَم الذى سيظهر عند عتبة القصر ، وينفخ فى البوق معلناً قدوم الفارس النّبيل ، على عادة الأشراف فى ذلك العهد .

ولما طال انتظار دون كيشوت ، وبدا على حصانه أنه مشتاقٌ إلى أن يتمرّغ فى الإسطبل ، تقدّم بطلُنا حتى باب القصر ، فرأى الفتاتين فظنهما أميرتين تتنزّهان حول القصر ، وفى تلك اللحظة نفخ أحد الرُّعاة ببوقه ليجمع قطيع غنمه ، فلم يشكّ دون كيشوت أن القزَم يعلن قدومه ، فالتفت إلى الفتاتين وكانتا قد فزعتا من شِكّة سلاحه فقال :

— « اطمئنّا بالاً يا سموّ الأميرتين ، ولا تجزعا فقوانين الفروسيّة التى أرعاها تمنعنى من الإساءة إلى أحد ، بل تأمرنى أن أكون رَهْنَ إشارة مثلكما من السيّدات المبجّلات » .

فدهشت الفتاتان أوّلا من هذا الحديث الغريب ، ثم لم تتمالكا عن الضّحِك ، فاستأنف دون كيشوت حديثه فى شىء من الاستحياء فقال :

— « لا قيمة لجمال المرأة إن لم يزيّنه الأدب ، وليس من الأدب أن تضحك المرأة بلا سبب ، فعذراً يا سيّدتىّ إن أنا قدّمت إليكما هذه النّصيحة فإنها من رجل لا يرغب إلا فى خدمتكما » .

فأغرقت الفتاتان فى الضحك لما بدا لهما فى سَحْنَة دون كيشوت المقطّبة وأطواره الغريبة ، فكاد يفقد صبره لولا ظهورُ صاحب الفندق ، وكان رجلاً ضخماً لا يخلو من ذكاء ، ولكنّه لصّ محتال خبيث ، فكاد هو أيضاً يُغرِب فى الضّحِك عند ما رأى دون كيشوت فى بِزّته الغريبة ، غير أنه خشى من عاقبة المُزاح فاستعمل التأدُّب والمداورة وقال :

« يا سيّدى الفارس النبيل ! إذا كنت راغباً فى المبيت ، فسوف تجد فى هذا المكان كل ما تحتاج إليه إلا السّرير. . . »

فسُرَّ دون كيشوت من حديث صاحب القصر وعَرْضه السَّخىّ ، ولم يشكّ قطُّ فى أنه بإزاء قصر من القصور ، وها هو ذا أمير القصر يحدّثه ويدعوه ، فسارع إلى الجواب وقال :

— « يا سيّدى الأمير ! يطيب لى أىُّ شىء كان ، فإنى رجلٌ لباسُهُ السِّلاح وراحته المعارك » .

فدهش صاحب الفندق من أن يخلع عليه دون كيشوت لقب الإمارة فقال :

— « إذا شئت يا مولاى أن تقضى الليل هنا بلا نوم فعلى الرَّحْب والسَّعَة » .

ولم يكد ينتهى من كلامه حتى خفّ إلى دون كيشوت ، وأمسك بركاب الحصان ليساعده على النزول .

نزل دون كيشوت من الحصان وهو يترنَّح ، لأنه كان خائر القُوَى ، فأوَّلُ شىء عمله أنه أوصى صاحب الفندق خيراً بحصانه ، وقال له إنه أجود الخيول فى الدُّنيا على الإطلاق ، فلم يصدّق صاحب الفندق حرفاً مما قال له ، ولكنه قاد الحصان مع ذلك إلى الإسطبل . ولما رجع رأى الفتاتين تنتزعان أسلحة دون كيشوت ، فقد كان الصُّلح قد عقد بينهما

وبينه . وعبثاً حاولت الفتاتان الجميلتان أن تنزعا الخُوذة وأطرافها من رأس دون كيشوت وعنقه ، فالأربطة التى كانت تشدّ تلك الأطرافَ بعضَها إلى بعض ، كانت معقودةً بحيثُ لا يمكن حلها إلا بقَطْعها ، فأبى دون كيشوت ذلك ، وفضَّل أن يبقى طول الليل لابساً خُوذته القائمة على رأسه ، والمحبوكة حول عنقه .





٣

عُنيت الفتاتان بدون كيشوت ، وجاءتاه بطعامٍ وشراب فبدأ يأكل ويقضى على جوعه ، غير أنّه كفّ فجأةً عن الأكل لمّا تذكّر أنه حتى تلك الساعة لم يكن قد نال رتبة الفروسية ، فنهض عن المائدة ، وذهب يبحث عن صاحب الفندق حتى لقيه فى الإسطبل ، فارتمى على قدميه وقال :

— « أيها الفارس العظيم والأمير الجليل ! أتسمح لى أن أسألك نعمةً من النِّعم ؟ »

فحاول صاحب الفندق أن ينهضه ، ولمّا لم يستطع ، وعده بأن

يجيبه إلى ما يطلب ، فارتاح دون كيشوت إلى الوعد وقال :

ـــ « لم تخب فِراستى فيك أيها السيّد النبيل ، فإن ما أطلبه منك يعود عليك بالمجد ، وعلى العالم بالنَّفْع والفائدة ، إننى أرجو من نبلك وسماحتك أن تخلع علىّ ، عند طلوع الفجر ، رتبة الفروسيَّة حتى أستطيع أن أذهب إلى أطراف المعمورة باحثاً عن الضعفاء والمظلومين ، لأمدّ لهم يد المعونة والإغاثة على غرار ما يفعله الفرسان التائهون الذين أتحرّق شوقاً إلى أن انخرط فى سلكهم » .

كان صاحب الفندق على جانب كبير من الخبث كما قلنا ، وكان قد اعتقد لأوّل وَهْلَة أن دون كيشوت لا يخلو من لَوْثة وجنون ، فلما سمع منه هذا الخطاب أيقن أن الرجل مجنون لا محالة ، فَحَلا له أن يعبث به ويلهو فقال له وهو يتصنّع الجدّ والخطر :

ـــ « إذا كان ما تطلب يليق بنفسك الكبيرة ، فحسَناً فعلت بالتجائك إلىّ ، فإنى رجلٌ قضيت شبابى كله فى الضَّرب والطِّعان والفروسية ، أتنقل من مدينة إلى مدينة ، ومن ميناء إلى ميناء ، أرودُ الحدائق العامة ، وأجوسُ خلال الدّيار والقرى باحثاً عن المغامرات ، مقدِّماً العون للأرامل والفتيات حتى عرفتنى جميع محاكم إسبانيا ، وأثنت علىّ الثناء المستطاب ، فلما دبَّت الشيخوخة إلىّ ، هجرت الدُّنيا وانعزلت فى قصرى هذا أعيش فيه هادئاً مطمئنًّا ، ويخامرنى السرور كلما

استقبلت فيه فارساً من الفرسان التائهين الذين يمرّون بى ، ولا أطلب إليهم ثمناً لعطفى ومودتى سوى أن أقاسمهم ما يحملون من مال ونقود تخفيفاً عنهم . فإليك ساحة القصر ، فإنك تستطيع أن تقضى فيها ليلك ساهراً قائماً بالحراسة التى تتطلبها قوانين الفروسية ، وفى صباح غدٍ نفى بالشروط التى تفرضها التقاليد ، وأمسحك فارساً نبيلاً لا كفء له ولا نظير .

ولكن أجبنى أولاً عن سؤال يهمنى ويشغلنى :

— « هل معك نقود ؟ » فقال دون كيشوت :

— « لم أقرأ قطُّ أن الفرسان يحملون معهم مثل هذا المعدِن الخسيس » .

فقال صاحب الفندق :

— إنك لعلى خطأ مبين ، فإن كان المؤرخون أغفلوا ذكر المال فلأنه أمر طبيعىّ وهو من الضرورة بمكان . وإنى أؤكّد لك أن الفرسان قاطبةً كانوا يحملون معهم أكياساً مملوءة بالنقود ، ويلبسون القمصان البيض ، ويضعون فى جيوبهم علبة مرهمٍ لشفاء الجراح التى قد يصابون بها . وإنك لا تجهل يا سيّدى أنهم لم يكونوا واثقين دائماً بعد المعارك الهائلة التى يخوضونها ، بأن تجيئهم مركبةٌ من السّحاب ، عليها فتاة جميلة تسقيهم من شرابٍ مقدّس تكفى نقطةٌ واحدةٌ منه لتشفى جراحاتهم .

لذلك كان كلُّ فارسٍ منهم يأمر تابعه بأن يصحب معه مرهماً وضمادات ونقوداً . فاقبلْ منى نصيحة والد لك فى الفروسيّة ، وهى أن لا تسافر

أبداً وأنت خلوٌ من النقود » .

فوعده دون كيشوت بأن يعمل بنصيحته ، ثم تركه وذهب يجمع سلاحه، لأنه كان يتلهّب شوقاً إلى قضاء سهرة السلاح على ما تنصّ عليه قوانين الفروسيّة .

خرج إلى ساحة الفندق فرأى في وسطها بئراً، فوضع سلاحه على حافتها وأمسك برمحه واعتمد ترسه وقام يحرسها جيئة وذهاباً .

وكان صاحب الفندق قد أخبر النزلاء بأمر دون كيشوت ، فتوافدوا جميعاً إلى ساحة الفندق يمتّعون أنفسهم برؤية ذلك المنظر الفريد، وكان القمر ناشراً أشعته الفضّية فسهّل لهم الرؤية والمتعة .

واتّفق أن أراد أحد البغّالين النّازلين بذلك الفندق أن يسقي بغاله، فاقترب من البئر فصاح فيه دون كيشوت صيحة مدوّية وقال :

— « أيّاً كنتَ أيها الفارس فحذارِ أن تمسّ هذا السلاح الذى تراه ، إنه سلاح أبرع مَنْ لاعبَ السيُوف ، وإلا كان الموت جزاء جرأتك » .

فلم يحفل البغّال بكلام دون كيشوت ولا سمعه، فنحّى السّلاح عن حافة البئر فاستُطير لُبُّ دون كيشوت ، ورفع عينيه إلى السماء وقال يخاطب حبيبته الخياليّة :

— « يا حبيبتي ومالكة فؤادى ! لا تتركى فارسك وعبدك فى أوّل

خطر يتعرّض له ، بل ارْعَبَه يزدَدْ قوة وحماسة » .

وما كاد يتم كلامه حتى رمى بالتُّرس ، وقبض على رمحه بكلتا يديه ، وأهوى بها على رأس البَغّال فوقع مغشيًّا عليه ، ثم جمع دون كيشوت سلاحه ووضعه ثانيةً على حافة البئر ، وعاد إلى الحراسة يذرع الأرض حول البئر .

ومرّت لحظات أراد بعدها بغّال آخر أن يسقى دوابّه ، ولم يكن قد عرف ما جرى لزميله ، فاقترب من البئر ونحّى السلاح عن حافتها فلم يوجّه دون كيشوت إليه الخطاب فى هذه المرّة ، ولا ناجى حبيبته ، بل عمد إلى رمحه وكسرها على رأس البغّال ، فأصابه بعدّة جراح ، فهرع صاحب الفندق والنزلاء إلى دون كيشوت ، فاحتمى بترسه وصاح يناجى حبيبته :

— « أيّتها الحبيبة الجميلة ! يا من هى سند نفسى وقوتها ! جودى علىّ بنظرة من نظراتك الحلوة فى هذه المعركة العنيفة » .

وشعر بعد هذا الكلام أن الشّجاعة قد اضطرمت فى عروقه ، وأن جميع البغالين فى العالم كله لا يستطيعون أن يزيحوه من مكانه قَيْدَ شعرة . أمّا زملاء الجرحى من البغّالين ، فاندفعوا يجمعون الحجارة ويمطرونها على رأس بطلنا المغوار ، فيتحاشاها بترسه ولا يتزحزح عن حافة البئر . وكان صاحب الفندق يصيح بالنّزلاء ، ويدعوهم للرّجوع عن ذلك المجنون . وكان دون كيشوت ينافسه فى الصِّياح والصُّراخ متهدداً متوعداً ،



فأذعن البغّالون لنصيحة صاحب الفندق ، وكفّوا عن رمى الحجارة . وابتعدوا بالجرحى إلى داخل الفندق ، وعاد دون كيشوت إلى حراسته وسيره فى هدوء عجيب .

وبدا لصاحب الفندق أن يقلع عن الضّحك والمزاح ، وأن يتخلّص من هذا المجنون ، فصمّم على أن يسرع فى منحه رتبة الفروسيّة التى يحلم بها ، فاقترب منه واعتذر إليه عن وقاحة أولئك الناس الغلاظ الذين غافلوه وقاموا بأعمالهم الحقيرة ، وزاد على ذلك فقال إن سهرة السّلاح يكفى فيها ساعتان ، وإن دون كيشوت قام بها على أكمل وجه ، فليستعدّ إذن ليتلقّى رتبة الفروسيّة على النحو الذى تقتضيه التقاليد والقوانين ، وهو عناق المانح وضربةٌ بصفحة السيف على ظهر الفائز بالرتبة ، فصدّق دون كيشوت هذا الكلام ، ورجا من صاحب الفندق أن يعجّل فى المراسيم. وكان هذا أشوق منه إلى التعجيل ، فتركه قليلا وعاد يحمل سجلّ الفندق وتتبعه الفتاتان اللتان تحدّثنا عنهما وصبىّ يمسك بيده شمعة صغيرة ، فأنهى إلى دون كيشوت بأن يركع أمامه فركع ، ثم فتح السجلّ وأخذ يتمتم بعبارات غير مفهومة ، كمن يتلو صلاةً من الصّلوات حتى إذا فرغ منها رفع يده وأنزلها بغلاظة وخشونةٍ على عنق دون كيشوت ، وأخذ بعد ذلك سيفه وضرب به بصفحته على ظهره ، ثم أنهضه وعانقه ، وهكذا تمّت مراسيم منح الرتبة . وكانت الفتاتان تريدان أن تنفجرا من

الضَّحِك، ولكنهما عملتا بنصيحة صاحب الفندق. فكتمت كلٌ منهما أنفاسها ، وتقدمت الأولى فحزّمته وتدلى السيف من حزامه ، ونهضت الثانية فألبسته المهماز . وسار دون كيشوت إلى الإسطبل فرحاً مختالا . فأسرج حصانه ، وامتطى صهوته ، وأقبل على صاحب الفندق يشكره على ما أولاه من نعمة عظيمة ، فردّ هذا على الشكر ردًّا مقتضباً . ولم يطالبه بشيء من النفقات ؛ فقد كان كلُّ همّه أن يرحل عنه ذلك المخبول ، ولشدّ ما كان سروره عندما ودّعه دون كيشوت وانطلق يضرب الأرض بحوافر حصانه .





٤

كان الفجر قد بدأ ينبلج عندما سار دون كيشوت والدُّنيا لا تسعه من شِدَّة الفرح ، فهو الآن فارسٌ لا مطعَنَ في رتبته ولا مغمزَ ، فخطر له أوّل ما خطر ، أن يعمل بنصيحة صاحب الفندق ، فقرَّر أن يعود إلى منزله ليتزوّد من النقود والقمصان ، وليختار له تابعاً يلازمه ، وكأنما قد أدرك حصانه رغبته فمشى خَبَباً إلى القرية .

وبينما كان يجتاز إحدى الغابات ، سمع فارسُنا صوت استغاثة ، فخفق قلبه سروراً ، وشكر السّماء على أن مهّدت له في اليوم الأول القيام برسالته الإنسانية ، فاتّجه نحو الصوت ، فرأى فرساً مربوطة

الأرسان إلى جذع شجرة ، ورأى على مقربة منها صبياً فى الخامسة عشرة من عمره ، عارى البَدَن ، موثقاً بالحبال إلى جذع شجرة أخرى ، وأمامه فلاّح عنيف قاسى الكبد ، ينزل عليه بالسّوط ضرباً مبرّحاً .

وفى الحال دوّت أرجاء الغابة بصوت دون كيشوت وهو يقول فى سخط وغضب :

ــ « أيها الفارس الخائن الغادر ! يا من لا يستحى مَن ضرب من لا يملك الدّفاع عن نفسه ! اركب فرسك واغرُبْ من وجهى وإلا أريتك جزاء الغدر والخيانة ، فما هذه أعمال الفرسان الشّجعان ! » .

فقال الفلاح فى خضوع واستبسلام بعد إذ رأى ذلك الفارس المدجَّج بالسّلاح :

ــ « يا سيّدى الفارس ! إن هذا الصبى الذى أعاقبه هو خادمى أنْقُدُه الأجر ليرعى غنمى وخرفانى ، غير أنه يقوم بعمله على أسوأ وجه ، ففى كل يوم ينقص قطعانى بعض الغنم ، وهو يدّعى أنى إنما أعاقبه وأتَّهمه تهرُّباً من دفع أجرته ، فوحقِّ السّماء إنه لكاذب » . فقال دون كيشوت :

ــ « هذا كذب وافتراء . هيّا حُلّ رباط هذا الفتى وادفع له أجرته وإلا سحقتك سحقاً وحقِّ الشّمس التى تضىء هذا الكون » .

فحنى الفلاح رأسه ، وفكّ وثاق أجيره ، فراح دون كيشوت يسأل الفتى :

— « كم لك عند مخدومك من أجر ؟ » فقال الغلام :

— « أجرة تسعة أشهر يا سيدى » . فقال دون كيشوت للفلاح :

— « ادفع له أجره على الفور إذا كنت لا تريد أن تموت » .

— « يجب أن أنقص من مجموع الأجر يا سيّدى ثمن ثلاثة أحذية اشتريتها له ، وثمن فصدتين أجريتا له فى أثناء مرضه » .

— « كلاّ . إن هذين المبلغين هما مقابل الضَّرَبات التى كِلْتَها له، فإن يكن مزّق أحذيتك فقد مزّقت جلده ، وإن يكن الحلاّق قد استنزف منه الدّم إبّان مرضه ، فإنك قد استنزفت دمه وهو صحيحٌ معافى ، فهذا يعدل ذاك » .

— « هذا حسن . ولكننى لا أحمل نقوداً . فسوف أدفع له مطلوبه إذا جاء معى إلى المنزل » . فصاح الغلام :

— « معاذ الله أن أسير معه إلى منزله ، فإنه خليق أن يمزّق جلدى تمزيقاً » . فقال دون كيشوت :

— « لا تخشَ بأساً يا فتى ! فحسبه أن يُقسم لى على رتبة الفروسيّة التى نالها » . فقال الغلام :

— « حاذر يا سيّدى فإن مخدومى لم ينل قطُّ رتبة الفروسيّة ، فما هو إلا فلاح ثرىّ » . فقال دون كيشوت :

— لا بأس فقد يكون فى أسرته فرسان شرفاء » . فقال الفلاح

مخاطباً الغلام :

— « تعال معى يا أخى إلى منزلى وأنا أدفع لك كل ما تطلب ، وكفى بالفروسيّة شاهداً على ما أقول » . فقال دون كيشوت :

— « حسبك يا رجل فقد صدّقتك ، فما عليك إلا أن تفى بوعدك ، والويل لك إذا أخلفت ، فسوف أعثر عليك لأعاقبك ولو استحلت إلى حشرة واختبأت فى الأحجار . بقى أن تعلم اسم الرجل الذى يخاطبك . أنا الفارس الشجاع دون كيشوت دى منشا ناصر المظلوم ، ومقيل عثرات الناس . أستودعك الله . فكّر فى يمينك وقسمك » . ثم تركهما وانصرف.

ولبث الفلاح يتبعه بالنظر حتى غاب وراء الأشجار ، فهجم عندئذ على غلامه وأوثقه من جديد إلى جذع الشّجرة . وانهال عليه ضرباً وشتماً وهو يقول له هازئاً متهكماً :

— « هيّا نادِ ناصر المظلوم ومقيل عثرات الناس » .

ثم فكّ رباط الغلام وتركه بين الموت والحياة ومضى فى سبيله .

وكان دون كيشوت فى أثناء ذلك يتابع مسيره راضياً عن نفسه كلّ الرّضى ، مسروراً من الأعمال التى بدأ بها رسالته الجليلة . فلاحتْ له بعد قليل كوكبةٌ من الفرسان مقبلة نحوه . وكانت تلك الكوكبة جماعة من التجّار ومعهم خدمهم ودوابّهم . فلم يشكّ دون كيشوت فى أن القدر ساق إليه مغامرةً عظيمة . فدفع حصانه إلى منتصف الطريق ،

وثبّت قدميه فى الرّكاب ، وأعدّ رمحه وترسه ، وانتظر حتى أصبحت القافلة على مرأى منه ومسمع فصاح فى أعضائها :

— « قفوا جميعاً واعترفوا معى بأن أميرة توبوزو أجمل امرأة على الأرض » . فوقف التجار مدهوشين من كلام الرجل وهندامه ، وخطر لذكىّ منهم ، أن يداعب هذا المجنون فقال له :

— « أيها الفارس النبيل ! ليس بيننا من يعرف هذه الأميرة التى تتحدّث عنها ، فتفضّل غير مأمور وأبرِزْها لنا ، فإن كانت من الجمال على الجانب الذى تصف وافقناك جميعاً إلى ما تطالب » .

— « أىُّ فضلٍ لكم فى الاعتراف بجمالها إذا ما شاهدتم ذلك الجمال؟ الأوْلى أن تعترفوا بجمالها وتقرّروه وتقسموا عليه الأيمان المغلّظة من غير أن تشاهدوها ، وإلا فاستعدوا للقتال واحداً واحداً أو جماعة ، فإن ذراعى كفيلة بكم جميعاً » . فقال له التاجر الذكىّ :

— « تفضّل يا سيّدى وأرِحْ ضمائر الأمراء الذين تحدّثتهم ، فإن نحن أجبناك إلى سؤالك فقد تغضب منا بقية أميرات العالم ، فهلاّ تفضّلت وأريتنا صورة ولو صغيرة لأميرتك الجميلة تمكّننا من الحكم على جمالها ، فضلا عن أننا نكاد نرى رأيك ، فإن كانت حولاء أو عوراء أو عرجاء أو حدباء ، فلن نقول إلا ما تحبّ وتشتهى » .

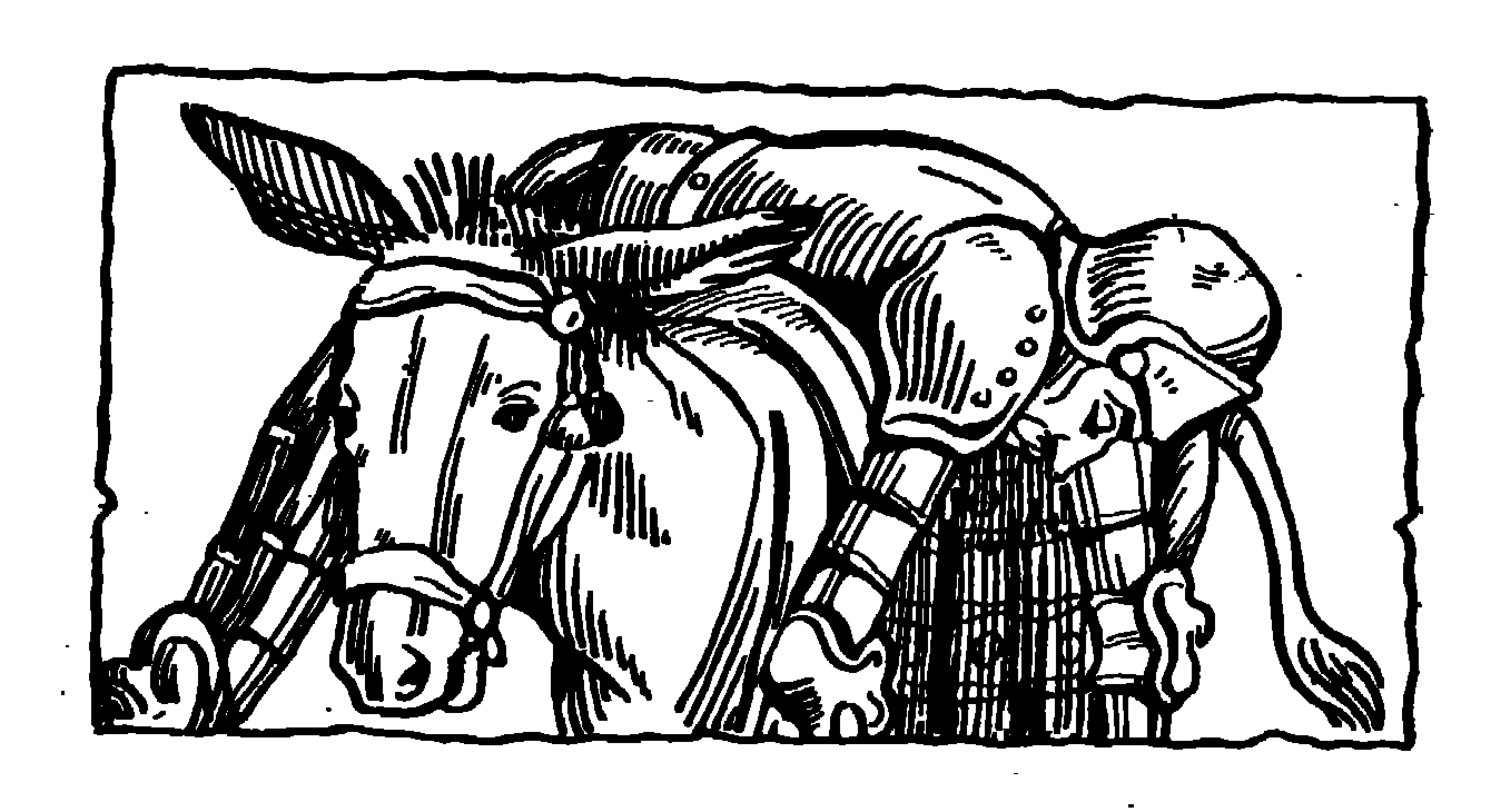
فاحتدم دون كيشوت غيظاً وغضباً وقال :

ـ «أيها الغِرّ السّافل ! إنّها لا حولاء ولا عوراء، فعيناها أجمل من الشّمس ، وقامتها أعدل من غصن البان ، ولسوف تدفع أيها الوقح ثمن وقاحتك وسبابك » .

قال هذا وهجم على مخاطبه والرّمح مُشْرَعةٌ في يده ، ولولا تعثُّر حصانه لاستقرّ سِنان الرّمح في قلب محدّثه ، ولكن حدث أن كبا الحصان فانطرح دون كيشوت إلى الأرض وقدماه معلّقتان بالرِّكاب ويداه مشغولتان بالرّمح والترس ، وعبثاً حاول أن يتخلّص من هذه القيود ويستوى على قدميه ، وكان مع ذلك يصيح ويصرخ :

ـ « لا تهربوا أيها الجبناء ! إنها غلطة جوادى فلولاه لعرفت كيف أؤدّبكم » .

فتضايق أحد الخدم من هذا السّيل من الشتائم فأقبل على دون كيشوت وانتزع منه رمحه ، وكسر غصنه ، وأشبعه به ضرباً ، ثم لحق بالقافلة التي سارت تتابع رحلتها . واجتهد دون كيشوت أن يقف على قدميه فما استطاع إلى ذلك سبيلا بعد الضربات المبرّحة التي تلقّاها ، فبقى ممدّداً على الأرض ، ناسباً سبب هزيمته إلى كبوة جواده فقال فى نفسه : لا حَرَجَ عليك يا دون كيشوت فكثيراً ما تحول سقطات الجياد دون انتصار الفرسان . . .



٥

مكث دون كيشوت مستلقياً إلى الأرض حتى مرّ به فلاّح من فلاّحي قريته كان عائداً إلى منزله بعد أن نقل كميّة من القمح إلى الطاحون ، فسارع إليه ليساعده على النهوض ، وعلى نَزْع الخوذة عن رأسه ووجهه فعرفه وصاح مدهوشاً :

– « ما الذى أتى بك يا سيّدى إلى هنا ؟ ومن ذا الذى جعلك فى هذه البِزّة وفى هذه الحال ؟ » . فلم ينبِس دون كيشوت ببنت شَفة ولزم الصّمت ، فعمد الفلاّح إلى أن ينزِع عنه الدِّرع ليضمّد جراحه إن كان مجروحاً ، فلما أيقن أنه سليم من الجراح ، أنهضه وأجلسه على حماره ،

ولمّ سلاحه وبقايا رمحه وربطها إلى ظهر الحصان ، وأخذ رَسَن الحمار بيده اليمنى ، ورَسَن الحصان بيده اليسرى ، واتجه بقافلته إلى القرية .

وفى أثناء الطريق انطوى دون كيشوت على نفسه من ألم الرّضوض التى أصابت جسمه ، وأخذ يستعرض فى ذهنه الحالات المماثلة لحالته مما كان قد قرأه فى القصص والرّوايات ، فكان يحدّث نفسه فى وسوسة وتمتمة تصل إلى سمع الفلاّح فلا يفهم منها شيئاً .

وصل الفلاّح وقافلته إلى القرية عند الأصيل ، واتجه تَوّاً إلى منزل دون كيشوت ، وكان غياب هذا قد ذاع فى أنحاء القرية ، وبثّ فى النفوس الجزع والقلق . وفى تلك الساعة كان صديقاه الحميمان ، وهما قسّيس القرية وحلاّقها ، فى منزله يتشاوران ويفكّران ، ومدبّرة المنزل واضعة يديها فى خصرها وهى تصيح بملء فيها :

— « ما قولك يا حضرة القسّيس الفاضل فى غياب سيّدى ومخدومى . . . لا حصانه هنا ولا سلاحه ... ليحرمنى الله نعيم الجنّة إن لم تكن أقاصيص الفروسيّة التى كان يقرؤها ليل نهار قد شوّشت فكره وذهبت بلبّه . . . آه ! لقد تذكرت الآن . . . إنى سمعته يوماً يخاطب نفسه ويقول إنه يودّ لو يكون أحد الفرسان التائهين الذين يسعون إلى المغامرات ويعملون فيها الضّرب والطّعن . . . ليحرق الشيطان هذه الكتب اللعينة التى أفسدت عقل سيّدى ومولاى » .

وما هو أن تسكت قليلاً حتى تتقدم ابنة أخت دون كيشوت من الحلاّق وتقول :

ــ « يجب أن تعلم يا سيّدى نقولا أن خالى كان يقضى أحياناً يومين كاملين وهو يقرأ هذه الكتب اللعينة قراءة متواصلة ، وكان ينهض مراراً مَغيظاً مُحْنقاً فيستلّ سيفه ويضرب به الحيطان ، فإذا كَلّ وتعب اندفع يقول إنه قتل أربعة مردَة كلٌّ منهم أطول من برج ، ثم يعمد إلى قدح فيشرب به زاعماً أنه شرابٌ ساحرٌ عجيب يشفى الجراح . . . إنى آسفة كلّ الأسف يا سيد نقولا على أنى لم أخبرك بهذه الأمور قبل اليوم ، فلعلك كنت تستطيع إنقاذ خالى وحرق كلّ هذه الكتب الشيطانية » . فقال القسيس :

ــ « إنى أشاطرك الرأى يا آنسة ، فإن هذه الكتب خطرة جداً ونحن قد نمنا عنها وتهاونّا فى دَرْء أخطارها ، فلن يطلع علينا الصباح حتى أجعلها أمثولة وعِبرة ، وأجتثّ شرّها فلا يصل أذاها إلى أحد بعد اليوم ، فكفاها أنها أفقدتنى صديقاً عزيزاً » .

وبينما كان القوم يتناولون مثل هذه الأحاديث ، سمعوا الباب يطرق ، وصوتاً صارخاً يقول :

ــ « افتحوا . . . افتحوا للسيّد السَّنَد » .

فهُرع القوم إلى خارج الدار ، ورأوا دون كيشوت ملقىً على الحمار

لا يستطيع الترجّل ، فعرفوه وأقبلوا عليه يوسعونه تقبيلا وترحيباً فصاح فيهم :

— « قفوا . . . إنى جريح . . . من كبوة جوادى ليس إلا . . . فانقلونى إلى سريرى وادعوا لى الساحرة "أرجِندا" لتلمس جراحى فتشفى » .

فلم تتمالك مدبّرة المنزل نفسها فصرخت قائلة :

— « هل سمعتم يا ناس ما يقول ؟ . . . ألم أفطُن إلى سبب دائه ؟ فتعال يا سيّدى فنحن كفيلون بشفائك ولا حاجة بنا إلى سحر السّاحرة ... لتنزل لعنة السماء على هذه الكتب الشّيطانيّة التى جعلتك فى مثل هذه الحال » .

نقل القوم دون كيشوت إلى سريره ، وتلمّسوا جراحه فما وجدوا لها من أثر فقال لهم :

— « لولا كبوة جوادى لمزّقت المَرَدَة العشرة تمزيقاً .» فقال القسيس :

— « آه ! إذن فى المسألة مَرَدَة ! غداً نحرق الكتب ؛ فإلى غدٍ » .





٦

بكّر القسّيس فى صباح اليوم التالى إلى دار دون كيشوت ، وكان صاحبنا لا يزال غارقاً فى سُبات عميق ، فطلب القسّيس إلى ابنة أخته أن تفتح له باب المكتبة فلبّت هى ومدبّرة المنزل طلبه بسرعة البرق ، فدخلوا الغرفة ، وكان الحلاّق قد حضر أيضاً ، فوقعت أنظارهم على تلال من الكتب بين كبير وصغير ، فبدأ القسّيس يفحصها ليعزل منها الصّالح والمفيد ، غير أن السّيدة والفتاة صرختا معاً :

— « لا . لا يا سيدى ! كلها كتب موبوءة . كلها يجب أن نرمى بها طعمة للنار » . وهكذا كان .

وبعد دقائق قليلة ، استيقظ دون كيشوت من رُقاده وهو يصيح بأعلى صوته :

— « إلىّ . إلىّ . هنا محكّ البأس والشجاعة . . . »

فبادر القوم إليه فرأوه واقفاً فى وسط الغرفة ، والسيف فى يده يضرب به ذات اليمين وذات الشمال ، فتألّبوا عليه واستطاعوا أن يعيدوه إلى سريره ، فنظر إلى القسّيس نظرة طويلة ثم قال :

— « يا للعار ! نحن هنا اثنا عشر نبيلاً يتملّكنا الجبْن فنترك لفرسان البلاط أكاليل الغار ، بعد أن قضينا ثلاثة أيّام ندافع عن البسالة والإقدام » فقال له القسيس :

— « وما العمل يا جارى العزيز ؟ يجب أن نستسلم إلى مشيئة القدر فلعلّ الحظّ يعاودنا فنكسبَ غداً ما خسرناه اليوم . . . لا تفكّر إلا فى صحّتك فأنت متعَب مرهَق ، وقد تكون جريحاً ... » فقال دون كيشوت :

— « أجريح أنا ؟ . . . كلاّ . ولكن هذا الأبله "رولان" لما رآنى أقاتل وحدى ، وأنتزع منه ثمرة النّصر ، ضربنى بجذع شجرة ، ولن أكون الفارس المغوار إذا لم أردّ له الكيل كيلين عند ما أنهض سليماً معافى . أما الآن فإنى جائع » . فجىء إليه بطعام أكله ثم عاد إلى النّوم

وانتهزت مدبّرة المنزل فرصة رقاده فعادت إلى حرق الكتب التى كانوا قد رموا بها إلى صحن الدار ، ولم تستثن منها حتى الكتب التى لم

يجد القسيس حرجاً من الإبقاء عليها، ثم شاء القسيس والحلاق أن يقضيا على الشر من جذوره فخلعا باب غرفة المكتبة، وشيدا في مكانه حائطاً فضاعت معالم الباب، وأوصيا ابنة أخت دون كيشوت أن تقول لخالها عندما يصحو ويبحث عن كتبه ومكتبته إن ساحراً من السحرة قد اختطف الكتب والمكتبة.

وتماثل دون كيشوت إلى الشفاء بعد يومين قضاهما في التخريف والهذيان، فنهض من سريره واتجه تواً إلى المكتبة فلم يجد الباب، فمكث مدة طويلة يتحسس موضعه ويتحسس الجدران ويطيل النظر في الزوايا والأركان، حتى انتهى به الأمر إلى أن يسأل مدبرة المنزل أن تقوده إلى غرفة المكتبة. فقالت له هذه:

— «أية مكتبة يا سيدي؟ لم يعد لدينا مكتبة ولا كتب فقد اختطف الشيطان كل هذا». وقاطعتها ابنة أخته قائلة:

— «ليس الشيطان هو الذي اختطف الكتب والمكتبة بل الذي أتى عليهما جميعاً ساحرٌ جاءنا في غيابك ممتطياً ظهر تنين هائل، فدخل المكتبة ولا أدري ماذا عمل فيها، ولكنني رأيته بعد قليل خارجاً من سقف الغرفة بعد أن ملأ البيت كله بالدخان، فجرينا لننظر ماذا جاء يفعل فلم نجد لغرفة المكتبة أثراً. على أنني أذكر، والمدبرة لا بد تذكر أيضاً، أنه قال لنا وهو منصرف إنه أراد أن ينتقم من رب الدار فهو

يكرهه كل الكُرْه» . فقال دون كيشوت :

— «لقد عرفته . إنه "فرستون" عدوّى اللدود . إن سحره أبان له أنى سأقهر يوماً فارساً يحبّه ويحميه ، ومنذ ذلك الحين وهو يكيد لى المكايد ، ولكن محال أن يغيّر مصاير البشر» . فقالت ابنة أخته :

— «ولماذا تتداخل يا خالى فى هذه المنازعات والمعارك ؟ أفلا تكون أسعد حالاً إذا لزمت دارك وأقلعت عن الأسفار والمغامرات ؟ ألا تعرف المثل القائل : إن مَنْ يسعى إلى قطف الحقد يعود محطّم البدَن؟» .

فقال دون كيشوت :

— «إن دون تحطيم بدنى جلوداً تُسلَخ وتُشْوى» . وانتهى الحديث بينهما عند هذا الحد .

ولم يظهر على دون كيشوت فى الأسبوعين التاليين أن يفكّر فى مغامرة جديدة سوى أنه كان فى أحاديثه مع القسّيس والحلاق يُصِرّ على وجوب إحياء الفروسية التائهة ، ويؤكّد لهما أن الله أوحى إليه أن يبعث تلك الفروسيّة من مرقدها .

ولم يكن أحد يدرى فى أثناء تلك المدة أن دون كيشوت يحاول إغراء فلاّح من جيرانه بأن يهجر أرضه وأسرته ويكون له تابعاً فى رحلاته ومغامراته . وكان الرجل ساذج القلب فاقتنع بأقوال دون كيشوت ووعوده الخلّب . وكان مما قاله له ليغريه بالقبول إن التّابع لفارسٍ من الفرسان

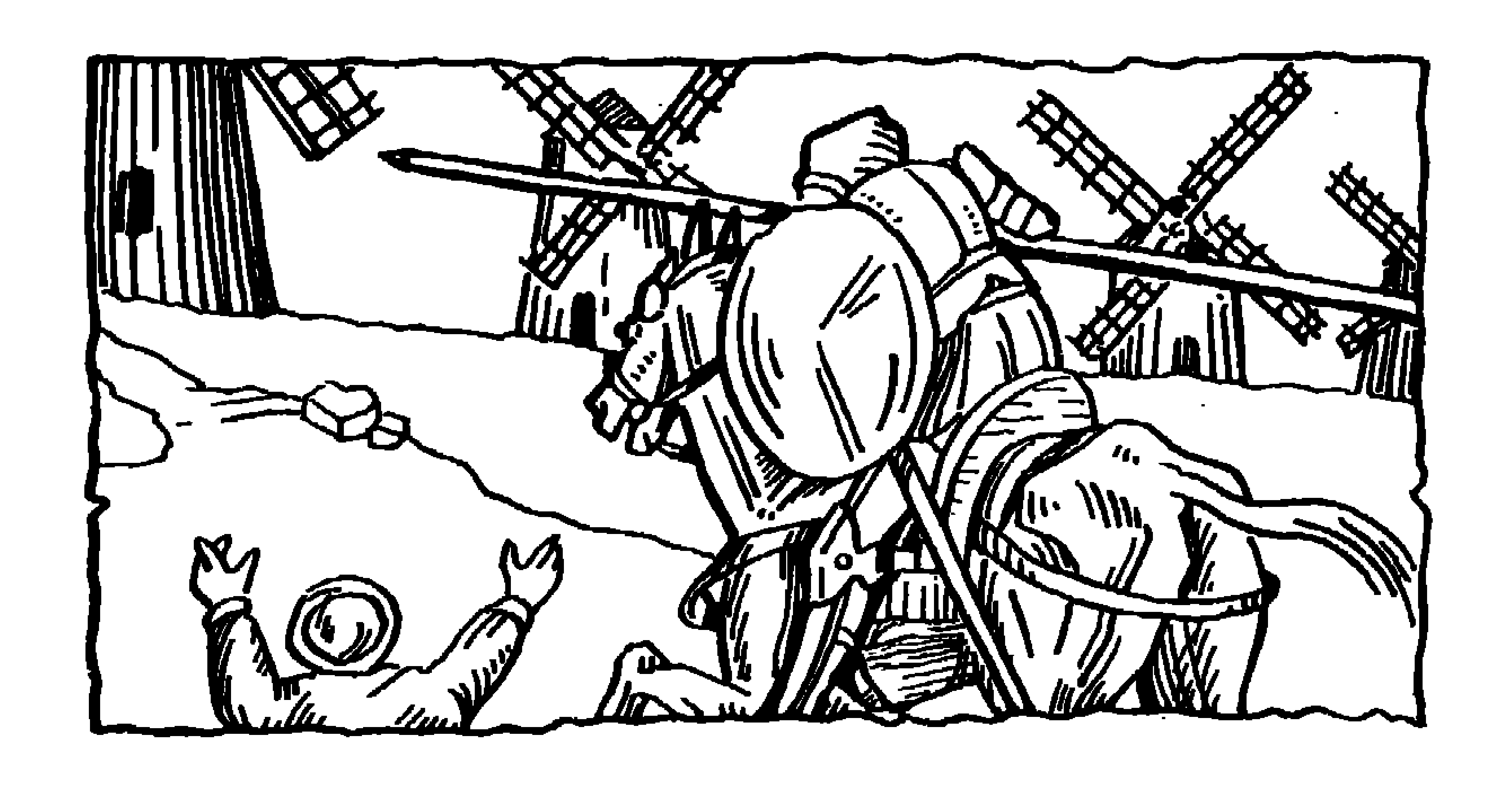
من حقه إذا ما انتصر سيّده فى معركة من المعارك ، أن يستولى على جزيرة من الجزر ويحكمها وينعم بخيراتها .

وظلّ دون كيشوت يغرى ذلك الفلاّح بمثل هذا الكلام المعسول المثير لشهوة الثراء ، حتى انقاد إليه وقرّر أن يهجر زوجته وأولاده ويتبعه .

ضمِن دون كيشوت أن يكون له تابع يسير وراءه فى رحلاته ، فسعى إلى جمع مبلغ من المال نزولاً عند نصيحة صاحب الفندق ، فباع قطعةً من أرضه ، ورهن قِطَعاً أخرى ، وتمكّن من الحصول على مبلغ من المال لا بأس به ، فاشترى عدداً من القمصان البيض ، واستعار من أحد جيرانه تُرْساً أحسن من ترسه ، وأصلح خوذته واتفق مع « سانشو بانسا » ــ وكان هذا اسم التّابع ــ على موعد الرّحيل .

وفى الليلة التى حدّدها دون كيشوت للرحيل ، تسلل هو وتابعه من القرية ، وسارا على غير هدى تملأ نفسيهما الأحلام والأوهام .





٧

قطع دون كيشوت وتابعه الليل كله فى السيْر والمسامرة ، حتى إذا كاد الفجر يشُقّ رداء الليل ، لمح دون كيشوت على مرمى البصر ، ثلاثين طاحونة أو أربعين ، فالتفت إلى تابعه وقال :

— « أبْشِرْ خيراً يا صديقى فالحظُّ يسعى إلينا جرياً . أترى أولئك الجبابرة المرَدَة ؟ إنهم أكثر من ثلاثين . ولكن لا بأس . فإنى سأنقضّ عليهم جميعاً . إنهم أعداء الله والإنسان ، وستكون أسلابهم طليعة الثروة التى سنقتنيها » . فقال سانشو :

— « أىّ جبابرة تعنى ؟ » فقال دون كيشوت :

— « أولئك الذين تراهم على البعد بأذرعهم الطوال » فقال سانشو :

— « مهلا يا سيدى. إن هذا الذى تراه ليس إلا طواحين ، والأذرع ليست إلا أجنحة تلك الطواحين » . فقال دون كيشوت :

— « يبدو عليك يا صديقى المسكين أنك لست من أهل المغامرات ولا لك خبرتهم . إن هذا الذى تراه هو عدد من الجبابرة . اسألنى أنا فأنا خبير بهذه الأمور ، فإن كنت خائفاً فتنحَّ جانباً واقضِ فترة من الوقت فى الصلاة والابتهال لله ، واتركنى أحمل وحدى على هؤلاء الجبابرة مهما بلغ عددهم » .

قال ذلك ومشى إلى ملاقاة هؤلاء الأعداء المزعومين ، غير ملتفت إلى صياح تابعه وتكراره القول بأن هؤلاء المردة ليسوا إلا طواحين ، ولما صار على مقربةٍ من تلك الطواحين زعق زعقةً شديدةً وقال :

— « مهلا أيها الجبناء فسأنكّل بكم أنا وحدى تنكيلا » .

وعصفت الريح فى تلك الأثناء فدارت أجنحة الطواحين فقال دون كيشوت غاضباً :

— « ابسطوا أذرعكم وأديروها كيفما شئتم ، فلن تنجوا من عقابى » .

وأعقب القول بالعمل فأشرع رمحه ، وأمسك بترسه ، وشدّ على أول طاحونة وصل إليها فقذفه جناحها ورمى به وبحصانه وسلاحه فسقط إلى الأرض وسقط على بعدٍ منه حصانه المسكين . فبادر إليه سانشو



على حماره ، ولقى أشدّ العَناء فى إنهاضه من سقطته العنيفة وهو يقول له :

— « إنها طواحين يا سيّدى . إنها طواحين . لقد بَحَّ صوتى وأنا أكرّر لك إنها طواحين » . فقال دون كيشوت :

— « لا خبرة لك بتقلبات الأقدار فى المعارك والحروب ، ولا تعرف شيئاً عن مكايد السَّحَرَة فالساحر "فرستون" عدوّى العنيد وسارق مكتبتى ، هو الذى أحالَ هؤلاء الجبابرة إلى طواحين حتى يحرمنى لذّة الفوز وشرف الانتصار . ولكن صبراً فلا بدّ لسيفى من أن يقضى على خبثه ودهائه فى النهاية » . فقال سانشو وهو يساعد دون كيشوت على ركوب الحصان بعد أن أنهضه من عثرته :

— « حقّق الله آمالك يا سيّدى » .

ركب دون كيشوت حصانه وتابع سيره ، فعزّ عليه أن يلقى رمحه مكسورة فالتفت إلى سانشو وقال :

— « أذكر أنى قرأت قصّة فارس إسبانىّ انكسر سيفه فى القتال ، فعمد إلى جذع شجرة فاقتلعه وأهوى به على أعدائه ، فقتل منهم خلقاً كثيراً . وسوف أفعل فعله عند أول شجرة نلقاها فى الطريق » . فقال سانشو :

— « آمين . آمين » . ثم أردف :

— « ألا ترى يا سيّدى أن قد حان لنا أن نتناول شيئاً من الطعام ؟ »

فقال دون كيشوت :

ـ « لا أرانى فى حاجة إلى طعام ، فكلْ أنت إن كنت جائعاً » .

فمدّ سانشو يده إلى الخُرْج ، وتناول منه بعض الأطعمة ، وأخذ يقضمها قضماً ويبتلعها ابتلاعاً بشهوة لا مزيد عليها .

واستمرّ دون كيشوت وتابعه يُغِذّان السّير حتى أقبل المساء وانتشر الظلام ، فقضيا الليل فى إحدى الغابات ، واقتطع دون كيشوت من بعض الشّجر غصناً طويلا ركّب فيه سنان رمحه ، ولم يغمض له جفنٌ طول الليل ، فقد شغل وقته بمناجاة حبيبته الخيالية كما كان يفعل الفرسان التّائهون . أمّا سانشو فقد غرِق فى سُبات عميق حتى الصّباح ، ولم يستيقظ على أشعّة الشمس تداعب عينيه ، ولا على تغريد العصافير تطرُق أذنيه ، بل استيقظ على صوت سيده الأجشّ فهبّ واقفاً وخفّ يُعِدّ طعام الإفطار ، ولكن سيّده رجل لا يتغذّى إلا بالأفكار والأحلام ، فرفض أن يذوق شيئاً ، وكان متشوّقاً إلى مواصلة السّير ، فركب حصانه ، وامتطى سانشو ظهر حماره ، فوصلا بعد ثلاث ساعات إلى ميناء من الموانئ الإسبانية الجميلة .

أبرقت أسارير دون كيشوت عند رؤيته الميناء فقال لتابعه :

ـ « هنا نستطيع أن نلقى المغامرات على صنوفها ، وأن نغرق فيها حتى الذّقن ، ولكن عندى نصيحة أريد أن أبذلها لك ، فمهما تجد

الأخطار محدقةً بي ، فإياك أن تجرّد سيفك وتهجم به ، فلست أسمح لك بمشاطرتي القتال إلا إذا هاجمني الرّعاع . أما الفرسان فاللوائح تمنعك من مقاتلتهم على أيّ نحو يكون » . فقال سانشو :

— « كن مطمئنًّا يا سيدي فسوف أطيع أمرك هذا طاعة عمياء ، فإني رجل مسالم يحبّ السّلام ، ولكن إذا هوجمت واعتُدي عليّ فسأدافع عن نفسي ما أستطيع ولن أحفل بلائحة ولا قانون » . فقال دون كيشوت :

— « حسناً تفعل فإنما نصحتك بما نصحتك به تقييداً لاندفاعك وحماستك ، فإني أعرفك شجاعاً باسلاً » .

ولاحت من دون كيشوت التفاتة إلى الطريق العام ، فرأى راهبين قد امتطى كلٌّ منهما بغلاً ضخْماً ، وحمل شمسيّتَه ، ووضع نظارات سوداء على عينيه ، ووراءه خادم يتبعه مشياً على الأقدام . ورأى على بُعد منهما مركبةً يحيط بها خمسة رجال يركبون الدّوابّ ، وقد جلست فيها سيّدة عُرف فيما بعد أنها لاحقة بزوجها المسافر إلى الهند . ولم يكن الراهبان في عِداد هذه القافلة وإنما كانا يسيران في الطّريق نفسه ، وفجأة صاح دون كيشوت بتابعه :

— « إن لم يخطئني الظّنّ فإننا مقبلان على مغامرة لم نشهد لها نظيراً حتى الآن ، فهذان الشّبَحان الأسودان ما هما إلا ساحران قد اختطفا إحدى الأميرات وحملاها على تلك المركبة . وإنك لتوافقني على أني

لا أستطيع السكوت على مثل هذا العمل الدّنىء » فقال سانشو :

— « انظر جيداً يا سيّدى ولا تجعل للشيّطان إليك سبيلاً ، فالمسألة أخطر من مسألة الطّواحين ، فليس فى الأمر إلا راهبان وسيدة مسافرة » .

فقال دون كيشوت :

— « قلت لك غير مرّة إنك لا تفهم شيئاً فى أمور المغامرات ، وسوف أبرهن لك فى الحال أنى على صواب ، وأن ظنونى لم تكذبنى » .

وما هى إلا قفزة جواد حتى كان دون كيشوت بالقرب من الراهبين فصاح فيهما :

— « يا أنصار الشّيطان ! أطلقوا سراح هذه الأميرة التى اختطفتماها وإلا استعدّا لصارم عقابى » . فدهش الرّاهبان من هذه المفاجأة فوقفا بغليهما وقال أحدهما :

— « أيها الفارس النبيل ! لسنا مَنْ ظننت وتخيّلت ، فإنما نحن راهبان مسافران إلى بعض شؤوننا ، ولا نعلم شيئاً عن أولئك النّاس الذين تراهم فى المركبة وحولها » . فقاطعه دون كيشوت قائلاً :

— « لن أنخدع بمثل هذا الكلام اللّين ، فإنى أعرفك جيّداً أيها اللعين » .

ثم أشرع رمحه وهجم به على أحد الرّاهبين فكاد يصيب منه مقتلاً لولا أن أسرع هذا فى الترجّل والاحتماء ببطن البغل . ودبّ الذّعر إلى

فؤاد الرّاهب الثانى فلكز بغلته وولّى الأدبار هارباً . وسارع سانشو إلى الرّاهب الممدّد بين قوائم البغل يفتّشه ويستولى على ما فى جيوبه ، فتقدّم الخادمان من سانشو يسألانه لماذا يفرغ جيوب الراهب مما تحوى فقال لهما مدهوشاً :

— « عجباً لكما ! إن سيّدى قد كسب المعركة فالأسلاب من نصيبى » .

فلم يفقه الخادمان شيئاً من هذا الحديث ، ولا أعجبهما ، فانقضّا على سانشو يُشبعانه ضرباً وينتفان له شعرات لحيته ، ثم انثنيا إلى الرّاهب فأنهضاه وأركباه بغله ، فمضى به يسابق الرّيح ليلحق بزميله الواقف عن بعد يراقب ما يحدث ويجرى ، فلما وصل إليه رأيا من الحكمة أن يُمعنا فى الفرار لا يلويان على أحد .

وكان دون كشيوت فى هذه الأثناء قد اقترب من المركبة ، فسلّم وانحنى وقال يخاطب السيّدة :

— « تستطيعين يا سيدتى أن تتابعى سفرك فى سلام وطمأنينة ، فذراعى قد أنقذتك من أعدائك وأنزلتْ بهم شديد العقاب ، ولعلّك تتوقين إلى معرفة اسم منقذك ، فإنى دون كيشوت دى منشا الفارس التائه وخادم أميرة توبوزو الباهرة الجمال ، ولن أسألك جزاءً على ما قمت به سوى أن تتفضّلى بالذّهاب إلى توبوزو لتخبرى أميرتها كيف أنقذتك

من أيدى الجُناة ورددت عليك حريتك المسلوبة » .

ودار هذا الكلام على مسمع أحد الفرسان المرافقين للمركبة ، فلم يفهم منه شيئاً ، ولكنه رأى دون كيشوت يُصرّ على أن تعود المركبة أدراجَها وتتّجه فى طريق توبوزو ، فأقبل على دون كيشوت ، وجذبه من رمحه وقال له بلهجة إسبانية مشوّهة :

— « اغرُبْ عنا أيها الفارس الأبله فوحقّ الله الذى خلقنى لئن لم تدع المركبة تتابع سيرها لأقتلنّك شر قتلة » . فقال دون كيشوت :

— « أيها المغرور ! لو كنت فارساً من الفرسان لأدّبتك على جرأتك ووقاحتك » . فقال الرجل :

— « سوف أريك أنى فارس الأرض والبحر والسماء ... جرّد سيفك » .

سمع دون كيشوت هذا الكلام فطرح رمحه ، واستلّ حسامه ، وهجم على خصمه محتمياً بترسه ، فانتضى الإسبانىّ سيفه ومال إلى المركبة وأخذ منها مخدّة جعلها له تُرْساً ، فحاول رفاق الإسبانى أن يحولوا دون اقتتال الرجلين ، غير أنه حلف ليقتلنّ كلّ مَنْ يعترض سبيله . وكان الرُّعب قد تملك جوانح السّيدة ، فأوعزت إلى الحوذى أن يبتعد عن مكان المعركة فامتثل أمرها ، وأخذت ترقب من بعيد صراع الرجلين وهى ترتجف هلعاً وفَرَقاً .

بدأ الإسبانى فوجّه ضربةً قاضية إلى كَتِف دون كيشوت فلولا أنه

صدّها هذا بترسه لكانت شطرته شطرين . وصرخ دون كيشوت صرخةً مرعبة وأنشأ يقول :

— « يا حبيبة القلب ! أعينى فارسك فى هذا الخطر الدّاهم » .

ولم يكد ينتهى من دعائه حتى شدّ بسرعة البرق على خصمه ، فتدارى هذا بالمخدّة ولم يسعفه البغل الذى يركبه على الكرّ والفرّ ، فما كان متعوّداً مثل هذه الحركات ، فانتظر أن يتلقى الضّربة وهو ساكن هادئ وكان النظّارة شاخصين بأبصارهم إلى السّيفين ، وقد أخذ الرّعب منهم كلّ مأخذ . أمّا السّيدة فكانت تتضرّع إلى الله أن ينقذ حارسها الأمين .

وكان دون كيشوت لا يزال مصلت السيف فى الهواء ، لم يهو به على خصمه ، فابتدره هذا بضربة عنيفة ، غير أن السيف قد التوى فى يده فطاشت الضّربة ، ولولا ذلك لأصبح دون كيشوت فى عداد الأموات ، ولانتهت المبارزة ، وانتهت معها حوادث بطلنا المغامر . ولكنّ القدر كان قد أعدّ دون كيشوت لأعمال عظيمة ، فلوى سيف خصمه ولم تأت الضربة إلا على جزء من الخوذة صلّمت معها نصف الأذُن. وحدّثْ ولا حرَج عن غضب دون كيشوت واحتدامه ، فوقف على رِكابه وأمسك السّيف بقبضتيه ونزل به نزول الصّاعقة على رأس خصمه ، فسال الدم من فمه ومنخريه ، وكاد يهوى إلى الأرض لولا أنه تشبّث بعنُق البغل ، فجزعت الدابّة وأخذت تجرى وتقفز وتضرب الهواء

بقوائمها حتى طرحت صاحبها أرضاً ، فترجّل دون كيشوت مسرعاً وشهر سيفه وطار إلى خصمه ينذره بالاستسلام وإلا جزّ عنقه ، فذهل الإسبانى من المفاجأة ،وقبل أن يحير جواباً كانت السيّدة قد نزلت من المركبة ، وركضت تستعطف دون كيشوت أن يُبقى على حارسها ولا يقتله ، فقال لها دون كيشوت بلهجة جدّ وفخر :

— « أيتها الأميرة الجليلة ! يسرّنى أن ألبّى طلبك ، ولكننى أشترط أن يذهب فارسك المغلوب إلى توبوزو ، ويمثل من قِبَلى بين يدى أميرتها تتصرّف بمصيره حسبما تهوى » .

فأجابته السيدة باسم حارسها إلى ما اشترط دون أن تعلم من تكون هذه الأميرة التى يتحدّث عنها ، فسُرّ دون كيشوت وأبقى على حياة ذلك الفارس المنكود .





٨

نجا سانشو من خدم الراهبين ، وشهد الموقعة وهو يدعو الله أن يشدّ أزر سيّده ، فلمّا رآه منتصراً غالباً يهمّ بركوب حصانه ، جرى إليه وركع بين يديه وقبلهما ثم قال بصوت ملؤه الخشوع والإجلال :

— « إذا سمح سيّدى وأميرى بإهدائى الجزيرة التى كسبها بانتصاره الباهر ، فإنى أعده أن أحكمها حكماً يرضيه ويسرّه » . فقال له دون كيشوت :

— « لم تكن مغامرتنا يا صديقى فى سبيل الاستيلاء على جزيرة من الجزر ، فإنما كانت مناوشة صغيرة تنحصر فوائدها فى الرجوع أحياناً

برأس محطّم ، أو أذن مصلومة ، فاصبر فلعلّ مغامرتنا المقبلة تنيلك ما تشتهى » .

فشكره سانشو ، وقبّل يده ، وأعانه على ركوب جواده ، وتبعه راكباً حماره وسائراً به سيراً حثيثاً .

وبعد مسيرة مسافة قصيره ، ابتعد بطلنا عن الطريق العام ، ودخل فى إحدى الغابات فقال له سانشو :

— « من الحكمة يا سيّدى أن تلتجئ إلى إحدى الكنائس ، فإنك قد أثخنت الرجل بالجراح ، فلو قبض علينا رجال الشرطة وزجّونا فى السجن فلا يعلم غير الله متى نخرج منه » . فقال دون كيشوت :

— « أين رأيت وأين قرأت أن فارساً تائهاً زجّ به فى السّجن لأنه قضى على أعدائه وأرسلهم إلى أعماق الجحيم ؟ » فقال سانشو :

— « لا أعرف أعماق الجحيم وإنما أعرف السجن ، وأعرف أن رجال الشرطة يرسلون إليه كل من يتبارز » . فقال دون كيشوت :

— « لا تخف يا صديقى لا تخف . فإن هاجمنا رجال الشرطة فأنا كفيل بأن آسرهم جميعاً . ولكن أجبنى بلا رياء ولا مداهنة : هل رأيت على الأرض فارساً أشجع منى ؟ وهل وجدت فى القصص التى قرأتها رجلاً أبرع منى فى الكرّ والفرّ، وأشدّ منى بأساً فى الضرب والطّعن ؟ » فقال سانشو :

— « أصدقك القول يا سيّدى أنى لم أقرأ قصّة من القصص ، لأنى لا أعرف القراءة ولا الكتابة ، ولكن أقسم لك أنى ما خدمت قطُّ سيّداً أشجع منك ، فلندعُ الله أن لا تقودنا هذه الشجاعة إلى حيث ذكرت . والمهمّ الآن يا سيّدى أن تضمد جرح أذنك ، فالدّم ينزف منها كثيراً ، فعندى فى الخرج مرهم وضمادات . . . » فقاطعه دون كيشوت :

— « آه لو كنت فكرت فى صنع قليل من " دواء الشجاعة " وجلبت منه معى ملء زجاجة صغيرة ، لأعاضنا عن مختلف أنواع الأدوية » . فقال سانشو :

— « وما هذا الدواء ؟ » فقال دون كيشوت :

— « إنه دواء عجيب ، أعرف أنا طريقة صنعه ، فمن يحصل عليه لا يكترث للجراح ولا للموت . فإذا صنعته وأعطيتك منه ملء زجاجة صغيرة ، ورأيتنى فى إحدى معاركى مشطوراً نصفين ، وهذا ما قد يحدث لنا كلّ يوم ، فما عليك إلا أن تأخذ الشطر المرمىّ إلى الأرض قبل أن يجمد فيه الدم ، وتقرّبه من الشطر الباقى على سرج الجواد ، وتُحكم وصلهما معاً ثم تسقينى قياس إصبعين من ذلك الدواء فأنتفض صحيحاً معافى ، ناضر الجسم نضارة التفاحة الشهية » . فقال سانشو :

— « إن صحّ هذا يا سيدى فإنى مستغنٍ عن حكم الجزيرة ، ولا أرجو منك على سبيل المكافأة إلا طريقة صنع هذا الدواء ، فسوف

أبيعه بثمنٍ غال ، أستعين به على أن أحيا حياة حرة شريفة » . فقال دون كيشوت :

ــ « حسن . ولكن ابدأ بتضميد جرح أذنى فإنه يؤلمنى أشدّ الألم» .

فتناول سانشو من خُرْجه الضمّادات والمرهم ، ولما لمح دون كيشوت أن خوذته محطمة كاد يفقد رشده ، فاستلّ سيفه ورفع نظره إلى السماء وقال :

ــ « يا خالق السموات والأرض ! إنى أشهدك أن لن أجلس إلى مائدة ، ولن أستسلم إلى مباهج الحياة ما لم أثأر لنفسى من ذلك الذى ألحق بى هذه الإهانة الشنعاء » . ثم أضاف فقال :

ــ « ولكن دعنا من هذا. أليس عندك يا سانشو شىء من الطعام ؟ » فقال سانشو :

ــ « عندى قليل من الخبز والجبن والبصل ، غير أنى أخجل من تقديم مثل هذا الطّعام لسيّدى الفارس » . فقال دون كيشوت :

ــ « لم تعرفنى كلّ المعرفة يا صديقى . فلو كنت قرأت ما قرأته أنا من أخبار الفرسان وقصصهم ، لعرفت أنهم إذا جلسوا إلى مائدة طعام فإلى موائد الملوك ، أما غذاؤهم فيما عدا ذلك فمن الهواء الذى يستنشقونه ، ولما كانوا كبقيّة البشر محتاجين إلى الغذاء فقد كانوا يقنعون فى الأسفار والغابات بمثل الطعام الذى تقدّمه لى ، فلنحذُ حَذْوَهم ولا نخالفهم» .

وبعد مدة قليلة وصل دون كيشوت وتابعه إلى روضة أنيقة يخترقها

جدول صغير ، فترجّلا وأطلقا الحصان والحمار يرعيان العشب والنبات وجلسا هما يأكلان من طعام سانشو .

واتّفق أن مرّ بالمكان بعض البغال ومعها أصحابها ، فركض حصان دون كيشوت يلاعبها ويداعبها فهجمت عليه توسعه عضًا ، وهجم عليه فى الوقت نفسه أصحاب البغال بعصيّهم الغليظة يشبعونه بها ضرباً ، فخفّ بطلنا إلى مساعدة حصانه « السكّيت » وهو يقول لسانشو :

— « ليس هؤلاء الأوغاد من الفرسان ، فلك أن تساعدنى على الثأر منهم لحصانى » . فقال سانشو :

— « كيف نستطيع أن نثأر له ؟ ألا ترى أنهم عشرون رجلا ؟ ونحن رجلان فقط أو إذا شئت فقل : رجل ونصف رجل » . فقال دون كيشوت :

— « إنى بمثابة مئة رجل » .

وعمد إلى سيفه فجرّده وهجم به على أول بغّال اعترض سبيله فمزّق له صداره . وأحبّ سانشو أن يقتدى بسيده فخفّ إلى رمحه وخاض المعركة يطعن به يميناً وشمالاً . وعزّ على البغّالين أن يقهرهم رجلان اثنان ، فسارعوا إلى هراواتهم المطعمة بقطع الحديد ، وأعملوها فى دون كيشوت وتابعه ، فلم تمض دقائق قليلة حتى كان دون كيشوت وسانشو منطرحين أرضاً لا حراك بهما. وخاف البغّالون أن يكونوا قد تجاوزوا الحدود فى التأديب



فجمعوا دوابّهم وركنوا بها إلى الفرار .

وكان سانشو أول من أفاق من غفوته فصاح فى صوت ضعيف خافت :

ــ « سيّدى دون كيشوت ! آه ! يا سيدى دون كيشوت ! » فقال له دون كيشوت :

ــ « ماذا تريد يا أخى سانشو ؟ » فقال سانشو :

ــ « أريد جرعتين من "دواء الشجاعة" فقد يكون ناجعاً فى شفاء العظام المدقوقة مثل نجوعه فى شفاء الجراح » . فقال دون كيشوت :

ــ « لو كان عندى منه نقط قليلة لما احتجنا إلى شىء آخر . فوالله لن يمرّ علينا يومان حتى أكون قد صنعت منه لنا زاداً وافراً وإلا عدمت يدىّ » . فقال سانشو :

ــ « ومتى تظنّ يا سيّدى أننا نستطيع تحريك أقدامنا ؟ » فقال دون كيشوت :

ــ « لست أدرى يا صديقى . والحق إنها غلطتى وحدى فقد هاجمت أناساً ليسوا من الفرسان فعاقبتنى الفروسية لخروجى على قوانينها . فعليك من الآن فصاعداً يا ولدى ، أن تتبع النصيحة التى نصحتك بها وهى أنه إذا هاجمنا الرعاع فلا تنتظر أن أنتضى حسامى ، بل انقضّ عليهم وحدك وعاقبهم مُرّ العقاب ، وإن هُرِع الفرسان إلى نجدتهم فكن مطمئنًّا واعتمد

عليّ ، ولا إخالك إلا عارفاً قوة ذراعي وشدة بأسي » . فقال سانشو :

ــ « قلت لك يا سيدى إنى رجل لا أحبّ الشّجار ، فأنا رجل مسالم ولى زوجة وأولاد ، فلن ترى أسرع منى إلى الصفح والغفران عن ماضى الذنوب وحاضرها ومستقبلها ، سواء ارتكبها الرّعاع أم اقترفها الفرسان ، فلا ترتقب منى أن أستعمل السّيف ، فلست أجيد الضّرب به ، وقد رأيت ذلك بأمّ عينيك » . فقال دون كيشوت :

ــ « لولا أن ضلوعى تؤلمنى وتمنعنى من الكلام لأفهمتك يا صاحبى أنك أسرفت فى اللوم والعتاب » . فقال سانشو :

ــ « أصدقك القول يا سيدى أنى فى هذه اللحظة أحوَجُ إلى شفاء ضلوعى منى إلى سماع النصح ، فحاول أن تقف على قدميك لنتعاون معاً على إنهاض حصانك ، وإن يكن لا يستحقّ العطف والعناية بعد ما سبّبه لنا من متاعب ومصائب . لقد صدق من قال إنه لا بد للإنسان من زمن طويل ليعرف البيئة التى يعيش فيها ، فمن كان يظن ، بعد الفوز المبين الذى أحرزته فى مبارزتك للإسبانى ، أن تتلقى هذه الضّربات التى نزلت على كتفيك نزول المطر » . فقال دون كيشوت :

ــ « لو لم أكن أعرف أن مثل هذه البلايا جزء متمم لمهمة الفروسية لفاضت روحى ألماً » . فقال سانشو :

ــ « لم تقل لى ذلك ، ولكن أعلم أنه لو تعرّضنا لمثل هذه الرزايا

المتعلقة بالمهنة مرّة ثانية ، لما تركتنا أحياء لنتلقاها مرة ثالثة » . فقال دون كيشوت :

— « اقرأ التاريخ تعلم ما يتعرّض له الأبطال والقياصرة . وعزائى عمّا انتابنى هو علمى أن كثيراً من الأبطال والفرسان الشجعان قد نكبوا بأفجع وأوجع مما نكبت به ، والحمد لله على أنها لم تكن ضربات عصىّ بل ضربات هراوات مطعّمة بقطع الحديد ، وشتّان ما بين الأمرين » .

فقال سانشو :

— « سيّان هذه وتلك ! فما كدت أجرد سيفى حتى رأيتنى طريحاً حيث لا أزال إلى الآن » . فقال دون كيشوت :

— « تشجّع يا ولدى وهيّا بنا نهض " السكيت " المسكين » .

فقال سانشو :

— « أوَليس هو أيضاً حصاناً تائهاً ، فليشاركنا فى المصير . أما حمارى فهو الذى كسب المعركة فلم يفقد شعرة واحدة » . فقال دون كيشوت :

— « إن القدر يسىء أحياناً ويدّخر الإحسان ، فلئن كان حصانى " السكّيت " محطّم الأوصال والأضلاع لقد يستطيع حمارك أن يحملنى إلى بعض القصور حيث أضمّد جراحى » . فقال سانشو :

— « أشكّ يا سيّدى فى أنك تستطيع الانتقال » . فقال دون كيشوت :

— « من الفخر للإنسان أن يعود جريحاً من ساحة القتال ، فانهض

واتني بحمارك ، وهيّا نخرج من هذا المكان قبل أن يدركنا الليل » .

فتحامل سانشو على نفسه ونهض وهو يصعّد الزفرات وأنّات الألم ، ويلعن الساعة التي رضي فيها بركوب الأخطار والمغامرات ، فمشى إلى حماره منحنياً كالقوس ، وجاء به إلى دون كيشوت فركبه ، ثم أخذ سانشو رَسَن الحصان فربطه إلى ذيل الحمار وسارت القافلة .

وبعد نصف ساعة لاح لهما فندق من الفنادق ، فتوهّمه دون كيشوت كعادته قصراً من القصور ، وعبثاً حاول سانشو أن يقنعه بواقع الحال . فلمّا يئس وسئم لزم الصّمت ودخل الفندق هو وذلك الرّكب العجيب .





٩

استغرب صاحب الفندق من رؤية دون كيشوت مضطجعاً على الحمار فسأل سانشو : « ماذا بالرجل ؟ أمريض هو؟ » فردّ عليه سانشو وقال :

ـ « كلاّ : ما به سوى أنه وقع من قمة جبل إلى السَّفْح ، وأن ضلوعه مدعوكة قليلاً » .

فسمعت زوجة صاحب الفندق الحديث فحملها قلبها الطيِّب إلى إسعاف دون كيشوت . وتبعتها ابنتها ، وكانت صبية جميلة لم تتجاوز الخامسة عشرة من عمرها . وكان فى الفندق خادمة غريبة الشكل ،

ذات وجه عريض ، ورأس مبطوح ، وأنف أقنى ، وعينين : إحداهما حولاء ، والأخرى رمداء ، وكتفين مقوستين حول عنقها يضطرانها إلى خفض بصرها إلى الأرض ، ولم يكن طول قامتها يزيد على ثلاث أقدام ، فأسرعت هي أيضاً تساعد الصبية الحسناء على نصب سرير لدون كيشوت في غرفة مملوءة بالقش ، وكان السرير يتألف من أربعة ألواح من الخشب الخشن ، وضعت فوق حمالتين : إحداهما أعلى من الثانية ، وغطيت بفراش أقسى من الألواح نفسها ، وفوقه ملاءة من قماش السفن ، وغطاء يمكن عد خيوطه ، فإلى هذا السرير الردىء استلقى دون كيشوت وقامت صاحبة الفندق وابنتها تضعان الكمادات على جسم دون كيشوت من رأسه إلى أخمص قدميه ، والخادمة ممسكة بشمعة مشتعلة لتضىء لهما المكان .

ولما رأت صاحبة الفندق الرضوض المنتشرة على جسم دون كيشوت قالت لسانشو :

— « لكأني بهذه الرضوض آثار ضرب لا آثار سقوط » . فقال سانشو :

— « ليست آثار ضرب يا سيدتي ، غير أن الجبل كان ذا صخور ناتئة حادة ففعلت كل صخرة في جسم سيدي فعلها » . ثم قال بصوت خافت :

— « أرجوك يا سيدتى أن تحتفظى لى ببعض الكمادات ، فإنى أشعر بألم شديد فى الكلى » فقالت :

— « أسقطت أنت أيضاً من الجبل ؟ » فقال :

— « كلاّ . أنا لم أسقط ولكننى لما رأيت سيدى يتدهور من قمة الجبل ، تملكنى شعور من الفزع أثّر فى جسمى كما لو ضُربتُ مئة ضربة بعصا غليظة » . فقالت الصبيّة الحسناء :

— « لا عجب فى ذلك فكثيراً ما حلمتُ أنى محطمة الأوصال كما لو كان الحلم حقيقة راهنة » . فقال سانشو :

— « هذا هو شعورى بعينه ، والفرق بيننا أنى لم أكن حالماً بل يقظان كلّ اليقظة ، غير أن كتفىّ مع ذلك ليستا أحسن حالا من كتفَىْ سيّدى » . فقالت الخادمة الدميمة :

« وما اسم سيّدك ؟ » فقال سانشو :

— « دون كيشوت دى منشا الفارس التائه ، وأشجع مَنْ عرفت الأرض من الفرسان » . فقالت :

— « وما معنى الفارس التّائه ؟ » فقال سانشو :

— « إن جهلت هذا كنت من السذاجة بمكان ، فالفارس التّائه مخلوق ترشحه شجاعته فى كلّ لحظة لأن يكون إمبراطوراً أو هدفاً لضربات العصىّ ، فقد يكون يوماً فقيراً مُدْقِعاً ، وقد يستطيع فى اليوم

التالى أن يهب تابعه ثلاث ممالك أو أكثر » . فقالت صاحبة الفندق :

— « كيف تكون تابعاً لمثل هذا السيّد العظيم ولا تملك إقطاعاً من الأرض ؟ » فقال :

— « صبراً يا سيّدتى فنحن لم نبدأ البحث عن المغامرات إلا منذ شهر فقط ، فإذا شفى سيدى دون كيشوت من جراحه أو بالأحرى من سقطته فأعظم دوقية فى إسبانيا لا تتكافأ وأصغر أمل من آمالى » .

وكان دون كيشوت يسمع هذا الحديث فجاهد حتى استوى فى سريره وقال لصاحبة الفندق :

— « يا صاحبة القصر المنيف ! لا تخالى القدر التافه هو الذى ساقنى إليكم ، فالحياء يمنعنى أن أذكر لكم من أنا . فهذا من شأن تابعى ، فحسبى أن أشكركم على صنيعكم وعنايتكم بى ، ولن أنسى لكم هذا الجميل » .

فتبادلت صاحبة الفندق وابنتها والخادمة النظرات عند سماعهن هذا الكلام الذى لم يفهمن منه حرفاً ، فأجبن عنه بأدب أصحاب الفنادق ، وعكفت الخادمة على سانشو تضمّد له كلومه .

وفى منتصف الليل ، استيقظ دون كيشوت على أنين سانشو فقال له :

— « اذهب إن استطعت إلى صاحب هذه القلعة ، واطلب منه قليلاً

من الزّيت والملح والخمر والريحان ، لأصنع منها الدواء الذى نحن فى حاجة إليه » .

فنهض سانشو وهو يكتم آلامه، وتحسّس الطريق إلى صاحب الفندق، فاصطدم برجل كان يسترق السمع عند أحد الأبواب، فقال له سانشو :

— « أيًّا كنت أيها الرجل فتلطّف وأعطنا قليلاً من الريحان والخمر والملح والزيت لنداوى بها أبرع الفرسان التائهين » .

فلم يشكّ الرجل عند سماعه هذا الحديث فى أن محدّثه مذهوب العقل ، فأذعن متلطفاً إلى رغباته ، ونادى صاحب الفندق فأعطى سانشو ما طلب ، فحمله إلى دون كيشوت فتسلمه منه وخلطه معاً ، ورجا من صاحب الفندق أن يغلى ذلك المزيج على النار ففعل ، ولما لم يكن فى الفندق زجاجة فارغة ليملأها دون كيشوت بذلك السائل ، جاءه صاحب الفندق بعلبة صغيرة من الصفيح فصب السائل فيها حتى امتلأت ، ثم تمتم ببعض الصلوات . وأراد أن يمتحن مفعول هذا الدواء فشرب فى جرعة واحدة كل ما لم تتسع له العلبة، أى نحو نصف كَيْلة ، فبدأ العرق يتصبب منه على الفور، واستسلم إلى سُبات عميق ردّ عليه قوّته وصحته ، فلما استيقظ شعر بالعافية والسلامة ، فظنّ أن دواءه صنع فيه هذه الأعجوبة ، وأنه يستطيع بتلك العلبة المملوءة من ذلك السائل أن يقتحم أشدّ الأخطار .

واستولى على سانشو الدّهش من فعل ذلك الدواء ، فألحّ على سيّده أن يعطيه قليلا منه فرضى فأخذ سانشو علبة الصفيح وحملها بيديه إلى فمه ، ونهل منها جرعات وافرة ، فأحسّ فى الحال بالألم يحزّ فى معدته وبطنه، وخيِّل إليه أن روحه تكاد تنفصل عن بدنه . واشتدّ عليه الألم فأخذ يصيح ويتلوَّى على الأرض ، ويشتم الدواء والوغد الذى أعطاه إياه . فقال له دون كيشوت :

ــ « هذا شراب يا صديقى لا يشفى غير الفرسان ولستَ منهم ، فتجرُّؤك على ما ليس من شأنك هو الذى سبَّب لك هذا النَّكد »

فقال سانشو :

ــ « ولماذا لم تقل لى ذلك ؟ إنى أكاد أحتَضر » .

وسكنت أوجاع سانشو بعد قليل ، وثارت الحماسة إلى المغامرات فى صدر دون كيشوت بعد أن وجد نفسه سليم البدن وفى حوزته « دواء الشجاعة » فذهب يسرج حصانه والحمار ، ويعين سانشو على ركوب حماره . ولما اعتلى صهوة جواده ، نادى صاحب الفندق فلبى نداءه هو وأسرته يحيط به نحو من عشرين نفساً فقال له دون كيشوت :

ــ « أيها السيد الكريم ! تقبَّلْ منى خالص الشكر على حفاوتك بى واستقبالى فى قصرك العظيم ، ولن أنسى آيات العطف والترحيب التى غمرتمونى بها جميعاً ». وسكت قليلا ثم أردف قائلاً :

— « أيها السيد النبيل ! راجع ذاكرتك وانظر هل أساء أحد إليك ، فإنى مستعدٌ أن أنتقم لك وأمحو عنك ما قد يكون علق بك من عار الإهانة . إن مهنتى هى الثأر للمظلوم » . فقال صاحب الفندق :

— « لست فى حاجة يا سيدى الفارس إلى أن تثأر لى ، وإنما أنا فى حاجة إلى أن تدفع لى نفقات المبيت فى فندقى ، وقيمة العلف الذى قدّمته للحصان والحمار » . فقال دون كيشوت :

— « ماذا تقول ؟ أفندق هذا ؟ » فقال صاحب الفندق :

— « نعم يا سيّدى ، وإنه لفندق على جانب كبير من الاستعداد لاستقبال النزلاء » . فقال دون كيشوت :

— « عجباً ! فقد كنت أظن أنه قصر عظيم ، وكيفما كان الأمر فلا إخالك تضطرّنى إلى الخروج عن قواعد الفرسان التائهين ، وأولى تلك القواعد أن لا يدفعوا ثمناً لنزولهم بالفنادق مكافأةً لهم على ما يتجشّمونه من جهد وعناء ليلاً ونهاراً ، وفى الصيف والشتاء ، وإبّان اشتداد الحرّ وانهمار الثلج فى سبيل الناس وخدمتهم » . فقال صاحب الفندق :

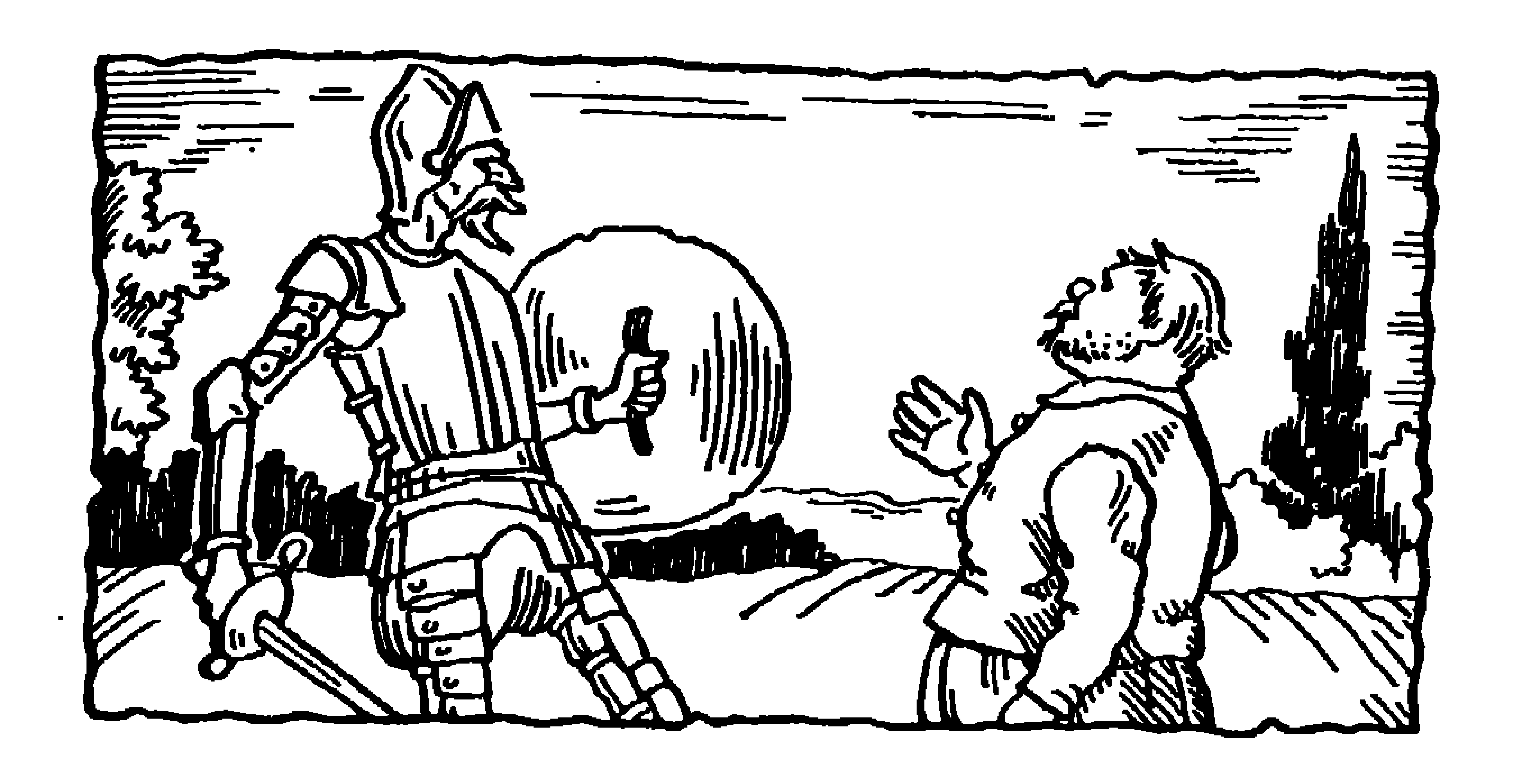
— « لا يهمّنى هذا كله يا سيّدى » . فقال دون كيشوت :

— « إنك لأبله يا صديقى إذا قصّرت فى واجبات الضيافة » .

ولم ينتظر دون كيشوت حتى يسمع الجواب فغمز بطن حصانه وانطلق به ينتهب الأرض انتهاباً . فجرى صاحب الفندق إلى سانشو

وطالبه بدفع أجرة الفندق وتوابعها فأفهمه أن خدم الفرسان مقيّدون بقوانين الفرسان نفسها ، ويعزّ عليه أن يتهم يوماً بخرق تلك القوانين . ومن سوء حظ سانشو أن كان في الفندق أربعة فتيان أشدّاء ، فتغامزوا فيما بينهم ، وهجموا على سانشو فأنزلوه من دابّته ، وجاءوا بملاءة وضعوه فوقها وأمسك كلٌّ منهم بجانب من جوانبها ، وأخذوا يرمون بسانشو في الفضاء ويتلقفونه بالملاءة مرّة بعد مرّة كما لو كانوا يلعبون بالكرة ، فبلغ صياح سانشو مسامع دون كيشوت ، فعاد أدراجه لينقذ خادمه ، فلقى باب الفندق مقفلاً . وكان يهمّ بتحطيمه أو يعلو أحد الأسوار ويهبط منه إلى داخل الفندق لولا أنه رأى الباب قد فتح فجأة وخرج منه الفتيان الأربعة يحملون سانشو بعد أن شبعوا من مداعبته ، فأجلسوه على حماره وقفلوا راجعين . وكأنما قد لعبت الشفقة بفؤاد خادمة الفندق فجاءت سانشو بإناء من الماء البارد ليشرب منه وينتعش ، فأقبل على الماء يعبّ منه حتى ارتوى ، ثم شكر الخادمة وأطلق لحماره العنان لاحقاً بسيده الذي سبقه ولم يفطن في سرعته وتعجله أنه نسي خُرْجه في الفندق .





١٠

تباطأ دون كيشوت قليلاً في السير حتى أدركه سانشو على حماره فقال دون كيشوت :

— « الآن أيقنت ، يا صديقي ، أن هذا القصر أو هذا الفندق منزل مسحور ، وأن الذين لعبوا بك على ذلك النحو الفظيع ، إنْ هم إلا أشباح ، فإني لما أردت أن أتسلق السور لأنجدك سمّرت على حصاني ولم أقوَ على التحرك وإلا لثأرت لك ثأراً شديداً » . فقال سانشو :

— « لو رأيت أولئك الفتيان الأشدّاء عن كَثَبٍ ، لما قلت إنهم أشباح ، فإنهم بشر من لحم ودم ، فلا سحر ولا سَحَرة ، فإن نحن واصلنا

البحث عن المغامرات فسوف نفقد فيها الحياة ، فلنرجع إلى قريتنا ولا سيما أن أوان الحصاد قد آن ، ولنهتمّ بشؤوننا فذلك أجدر بنا وأولى » .

— « يا صديقى سانشو المسكين ! أكرّر عليك القول إنك لا تفقه شيئاً فى أحوال الفروسية ، فهل تقاس هذه المصاعب التى نلقاها إلى المجد العظيم الذى ينتظرنا ؟ إنك تجهل لذة الفوز والنصر فى المعارك » .

— « كيف تريدنى أن أشعر بتلك اللذة ، ونحن منذ أصبحنا فارسين تائهين ، أو بالأحرى منذ أصبحت أنت فارساً تائهاً ، بعيدان من هذا الشرف لم نتغلب على أحد ولا انتصرنا فى معركة إلا التغلب على ذلك الإسبانى ولقد كلفك ذلك نصف أذنك ، فمنذ ذلك اليوم ونحن نتلقى ضربات العصىّ ، وزدت أنا عليك فكنت كرةً تتقاذفها الأيدى » .

— « سوف تتحسن الحال يا ولدى ، وسوف أحصل على سيف لا يؤثر فيه السحر » .

— « وما فائدتى أنا منه ؛ فسيكون مثل دواء الشجاعة لا يستفيد منه إلا الفرسان » .

وقبل أن يجيبه دون كيشوت عن اعتراضه هذا ، لمح من بعيد سحباً من الغبار فقال :

— « يا عزيزى سانشو ها هو ذا اليوم الذى خبأه لنا الحظ السعيد ، ففى هذا اليوم ستنيلنى الشجاعة فخراً خالداً ومجداً لا يبلى . أترى ذلك

الغبار المتصاعد ؟ إن وراءه جيشاً ضخماً » . فقال سانشو :

ـ « إذا صحّ زعمك فلا بد أن يكون هناك جيشان ، ففي الناحية الأخرى أيضاً غبار كثيف يتصاعد فى الفضاء » .

فالتفت دون كيشوت إلى حيث أشار خادمه ، فرأى الغبار وأيقن أن هناك جيشين متحاجزين يمشي أحدهما إلى الآخر فى حين لم يكن وراء ذلك الغبار غير قطيعين من الغنم . فقال :

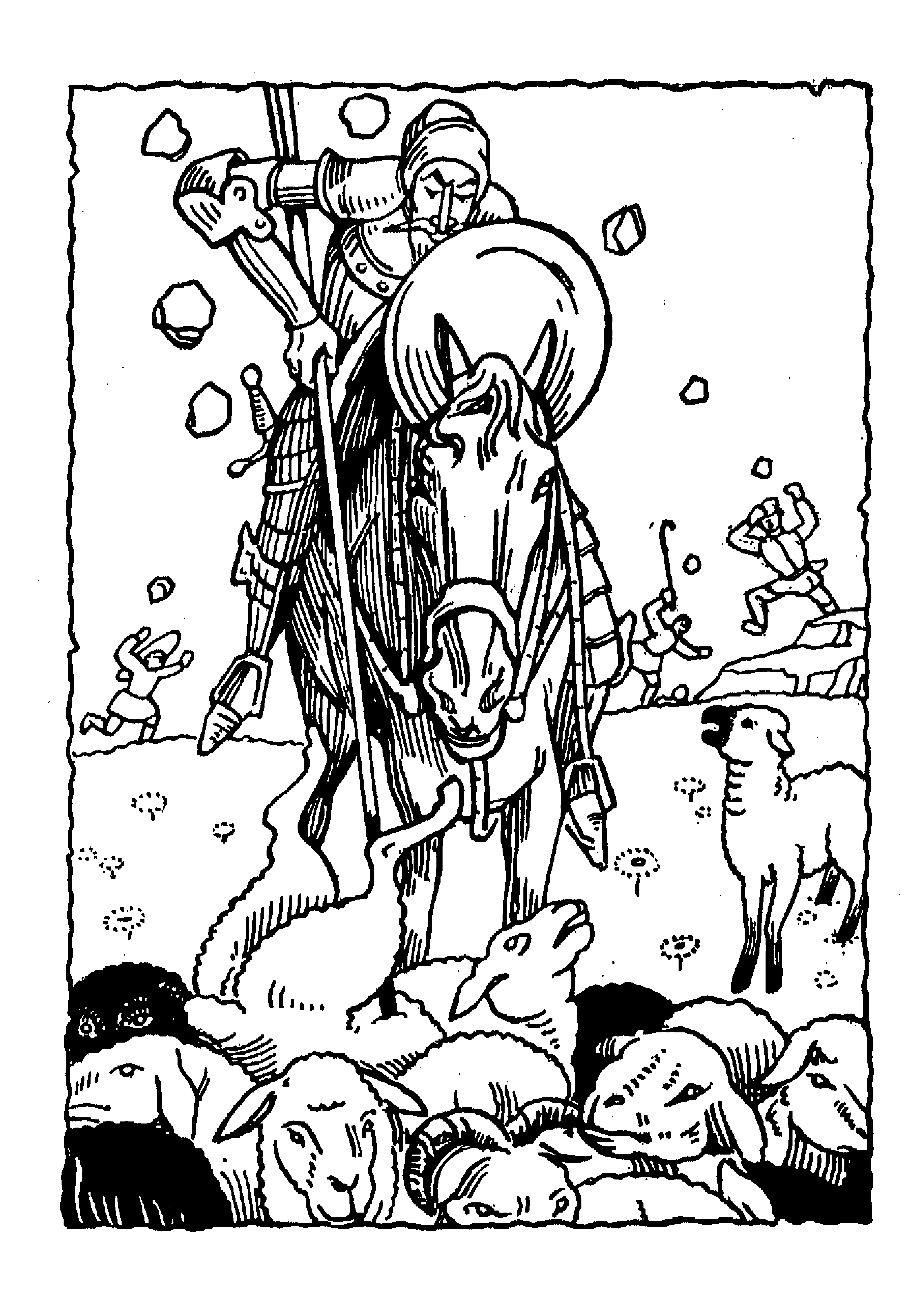
ـ « يا عزيزى سانشو ! سننضمّ إلى صاحب الحق من الجيشين ، وننصره على عدوه . واعلم أنك لا تحتاج فى المعارك المنظمة إلى أن تكون حائزاً على رتبة الفروسية ، فلك أن تخوض المعركة وتقاتل إلى جنبى » .

ـ « وماذا أفعل بحمارى؟ فليس من الحكمة أن أرمى به فى غمار الخيول » .

ـ « لا تحفل بحمارك كثيراً فسوف يكون لدينا بعد المعركة من الخيول عدد كبير لا ندرى أيها ننتقى وأيها نترك . وحصانى نفسه ، وهو عزيز علىّ ، قد أستبدل به جواداً آخر . فهيّا نصعد فى هذا التلّ لنشرف منه على المتحاربين » .

أدار سانشو نظره وهو فى قمّة التلّ فلم ير جيشاً ولا خيولا فقال :

ـ « لست أرى قتالاً ولا مقاتلين ، فلعله فعل السحر أيضاً يا سيّدى » .



— « عجباً ! ألا تسمع صهيل الخيول ودوىّ الطبول ؟ » .

— « لا أسمع شيئاً من ذلك اللهم إلا بعض ثغاء الغنم » .

— « إن كنت خائفاً يا عزيزى سانشو فانسحب وسوف أنقضّ وحدى على المعتدى الأثيم » . وأعمل دون كيشوت مهمازه فى بطن حصانه فانحدر به إلى سفح التل وسانشو يصيح فيه بعد أن رأى قطعان الغنم :

— « ارجع يا سيّد دون كيشوت فإنما تشدّ على قطعان من الخرفان ، فلا جيش ولا فرسان فارجع ارجع » .

واستمر دون كيشوت منطلقاً لا يصغى إلى توسّل سانشو حتى إذا اقترب من القطيع الأول صاح مزمجراً .

— « تشجعوا أيها الفرسان المقاتلون دون الحق والحرية والعدالة ! اتبعونى جميعاً فسوف أنتقم لكم من عدوكم الظالم » .

واخترق صفوف الغنم ورمحه مسدّد فى يده يطعن به تلك الأنعام المسكينة . ولا يبالى بصراخ الرعاة . فلما رأوه سادراً فى غُلَوائه ، رجموه بالحجارة فانهالت عليه انهيال المطر . وأصابته منها حجرة فى جنبه فترنّح من الألم . وتناول فى الحال علبة السائل العجيب فما كاد يقرّبها من شفتيه حتى اخترقتها حَجَرة أطارتها من يديه ومرّت بخدّه فجرحته ، فانكفأ فارسنا إلى الأرض من قوة الضربة . وخاف الرّعاة أن يكونوا قد قتلوا الرجل ، فلملموا غنماتهم الطعينة وولّوا هاربين .

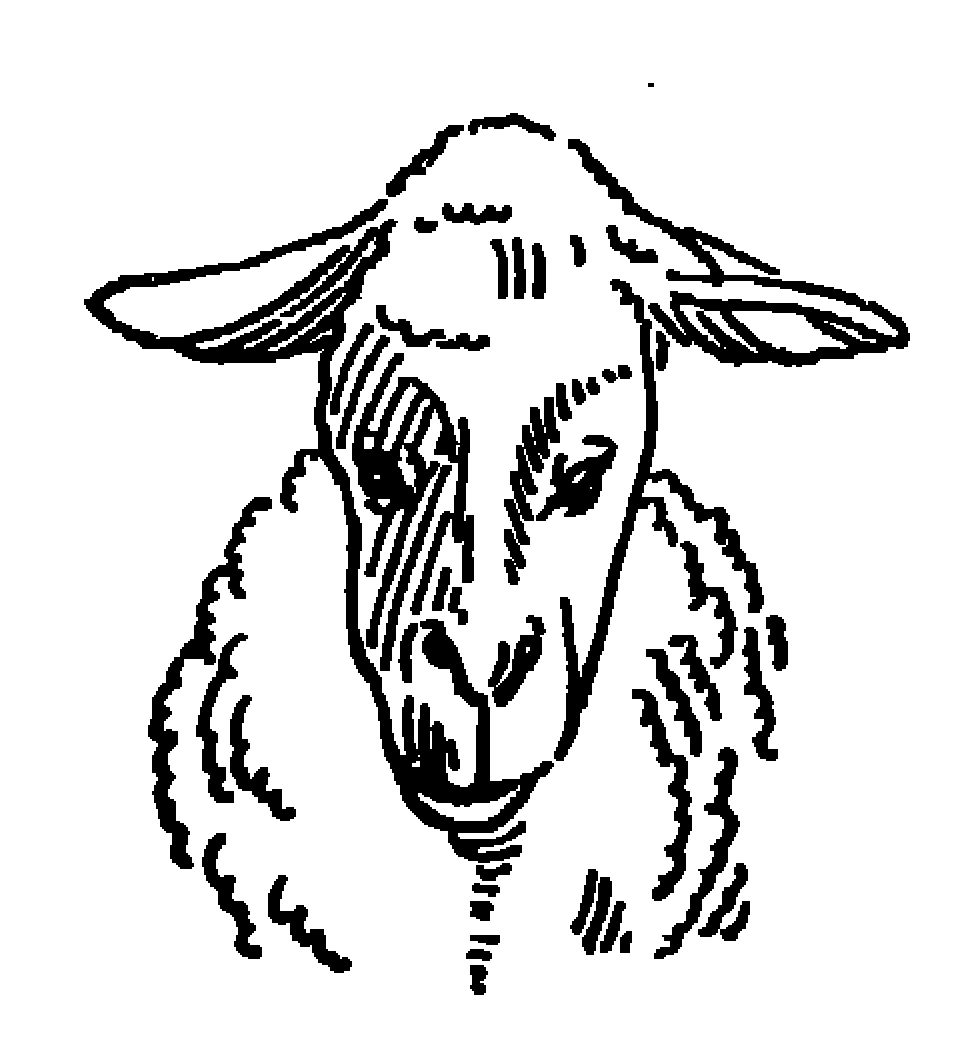
ومن أعلى التل كان سانشو يشاهد أعمال سيّده ، فينتف شعره ويلوم نفسه على أن اتبع مثل هذا المجنون . فلما رآه قد سقط من الحصان سارع إليه ينهضه وهو يقول :

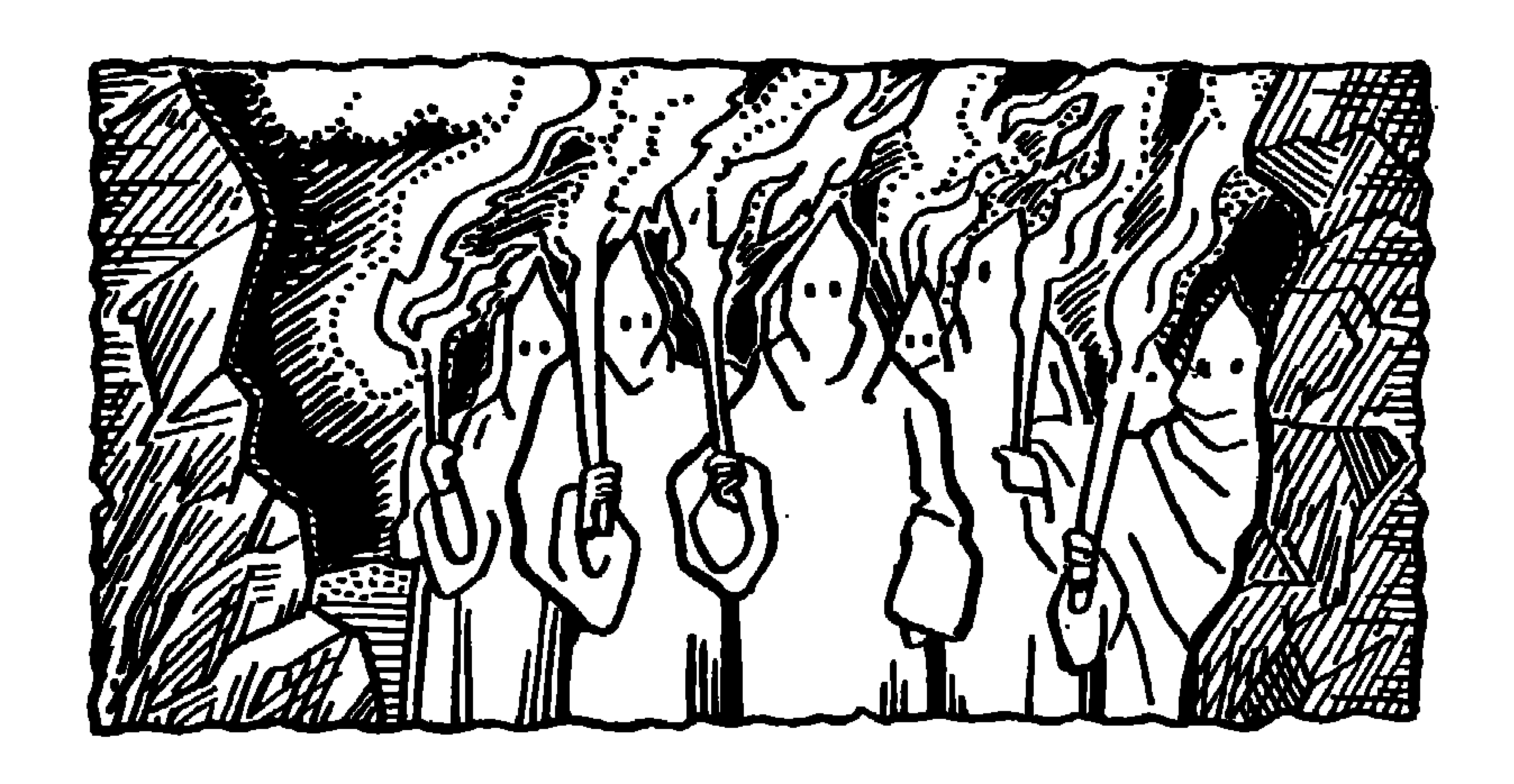
ــ « ألم أقل لك يا سيّدى إن الجيشين هما قطيعان من الخرفان ؟ »

ــ « وما ذنبي إذا كان الساحر الذى لا يفتأ يضطهدنى لينتزع منى غار النّصر والمجد قد حوّل الجنود إلى خرفان ، فناشدتك الله يا عزيزى إلا ركبت حمارك وتبعتهم فترى أن الجنود قد عادوا إلى شكلهم الإنسانى » .

ــ « دعنا من هذا ، ففمك مملوء دماً فلا بدّ من غسل جرحك وتضميده » .

وبحث عن خُرجه فلم يجده ، فأدرك أنه نسيه فى ذلك الفندق الملعون فكاد يفقد رشده ، وسبّ الساعة التى صحب فيها هذا المجنون ، وصمّم أن يعود إلى قريته ويعدل عن الجزيرة التى يحلم بها ويكلفه ثمنها غالياً .





١١

سار دون كيشوت يتبعه سانشو ، والليل قد بدأ يلفّ الكون بظلامه ، والجوع يمزّق أحشاءهما ، وإذا بهما يشاهدان فجأة أنواراً تتراقص وتقبل نحوهما ، فوقف كلٌّ دابـّته مذعوراً خائفاً ، وكانت الأنوار يتزايد عددها ويتضخّم شكلها كلما اقتربت منهما ، فجمع دون كيشوت شجاعته وقال :

— « ها هى ذى مغامرة أحتاج فيها إلى كل شجاعتى » . فقال سانشو :

— « أما أنا فالسلام علىّ إذا كنا سنحارب الأشباح » .

فطمأنه دون كيشوت ووعده بأن يدافع عنه دفاع الأبطال ، وتراجع الرجلان قليلا عن الطريق العام ليستوضحا شأن هذه الأنوار المقبلة ، فما كاد سانشو يتبينها حتى اصطكّت ركبتاه من الرعب ، فقد رأى نحو عشرين شبحاً أبيض ، راكبين الخيول وفى أيديهم المشاعل ، تنطلق من أفواههم أصوات خافتة أشبه بصلوات الجنازات ، ووراءهم مركبة سوداء يتبعها ستة فرسان مجلّلين بالسواد من قبعاتهم إلى قوائم خيولهم ، ولا عجب أن يستولى الذعر على فؤاد سانشو ، فمثل هذا المنظر فى مكان قفر ، وفى جنح الليل ، حرىّ أن يفزع رجلاً أشجع من سانشو قلباً وأثبت منه جناناً ، أما دون كيشوت فأسعفه خياله وأسعفته قراءآته على أن يبدّد الرعب الذى تملكه ، فقد تخيل أن فى المركبة فارساً جريحاً أو قتيلا غُدر به ، فلا بدّ إذن من أن يثأر له . واكتفى بهذا القدر من التفكير ، ومضى يقف فى منتصف الطريق مسدّد الرمح ، مستعدًّا للهجوم على تلك الأشباح البيض . فلما اقتربوا منه صاح فيهم :

— « قفوا أيها الناس وقولوا لى من أنتم ؟ ومن أين جئتم ؟ وإلى أين تذهبون ؟ ومن تنقلون فى هذه المركبة ؟ فأنتم إما مجرمون أو ضحايا مجرمين ، وعلىّ أن أعاقبكم أو أنتقم لكم » . فقال له أحد الرجال البيض :

— « الفندق بعيد ونحن مستعجلون وليس لدينا من الوقت ما نشبع به فضولك وتطفلك » . فقال دون كيشوت غاضباً :

— « تأدّب أيها الرجل أو استعدّ للنِّزال » .

وألوى دون كيشوت على جواد الرجل فأمسك عنانه فجفل ورمى بصاحبه إلى الأرض ، وجرى دون كيشوت إلى أحد الفرسان المتّشحين بالسواد فطرحه أرضاً بطعنة رمح ، ثم انثنى إلى غيره وهكذا دواليك . وكانت الحماسة قد سرت عدواها إلى حصانه « السّكّيت » فكان أشبه بفرس مجنّح يطير من مكان إلى مكان .

ولم يكن الرجال البيض من أهل الضرب والنزال ففرّوا بمشاعلهم وتفرّقوا وراء التلال والآكام ، وكذلك عرقلت الغلالات السود حركات الفرسان الستة فما كانوا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم ، فسهل على دون كيشوت التغلب عليهم جميعاً . ورجع سانشو إلى نفسه بعد إذ شاهد ذلك النصر المبين فقال : لابد أن يكون سيّدى على مثل ما يدّعى بأساً وقوة وشجاعة .

وبقى فى الميدان الرجل الذى جفل به جواده وطرحه إلى الأرض فسعى دون كيشوت نحوه وسدّد إليه الرمح وقال :

— « استسلم أو قتلتك ! » فقال الرجل :

— « ألا ترانى مستسلماً لا أستطيع حراكاً ؟ فإن قتلتنى قتلت رجلاً من رجال الدين لم يبدأك بالعدوان والإساءة » . فقال دون كيشوت :

— « وماذا جئت تعمل هنا ؟ » فقال الراهب :

ـ « إننا جماعة من الرهبان كنا ننقل جثة زميل لنا أوصانا بأن يدفن في مسقط رأسه » . فقال دون كيشوت :

ـ « ومن قتله ؟ » فقال الراهب :

ـ « الحمّى ! . . . » فقال دون كيشوت :

ـ « إذن لست ملزماً أن أثأر له . . . » فقال الرّاهب :

ـ « لا أعتقد يا سيّدى » . فقال دون كيشوت :

ـ « حسن . . . ذلك أنى فارس تائه ، ومن واجبى القضاء على الظلم وإقامة ميزان العدل » . فقال الراهب :

ـ « حبّذا لو تستطيع يا سيّدى أن تقيمنى من سقطتى فإنى أشعر أن ساقى مكسورة » .

فنادى دون كيشوت تابعه ولكن سانشو كان منهمكاً فى تجريد أحد الخيول من كميات الزاد التى كان يحملها ، فلبّى نداء سيّده وأعانه على وضع الراهب فوق الدابة ثم سلّم سانشو إلى الراهب المشعل الذى كان لا يزال متّقداً وودّعه وقال له :

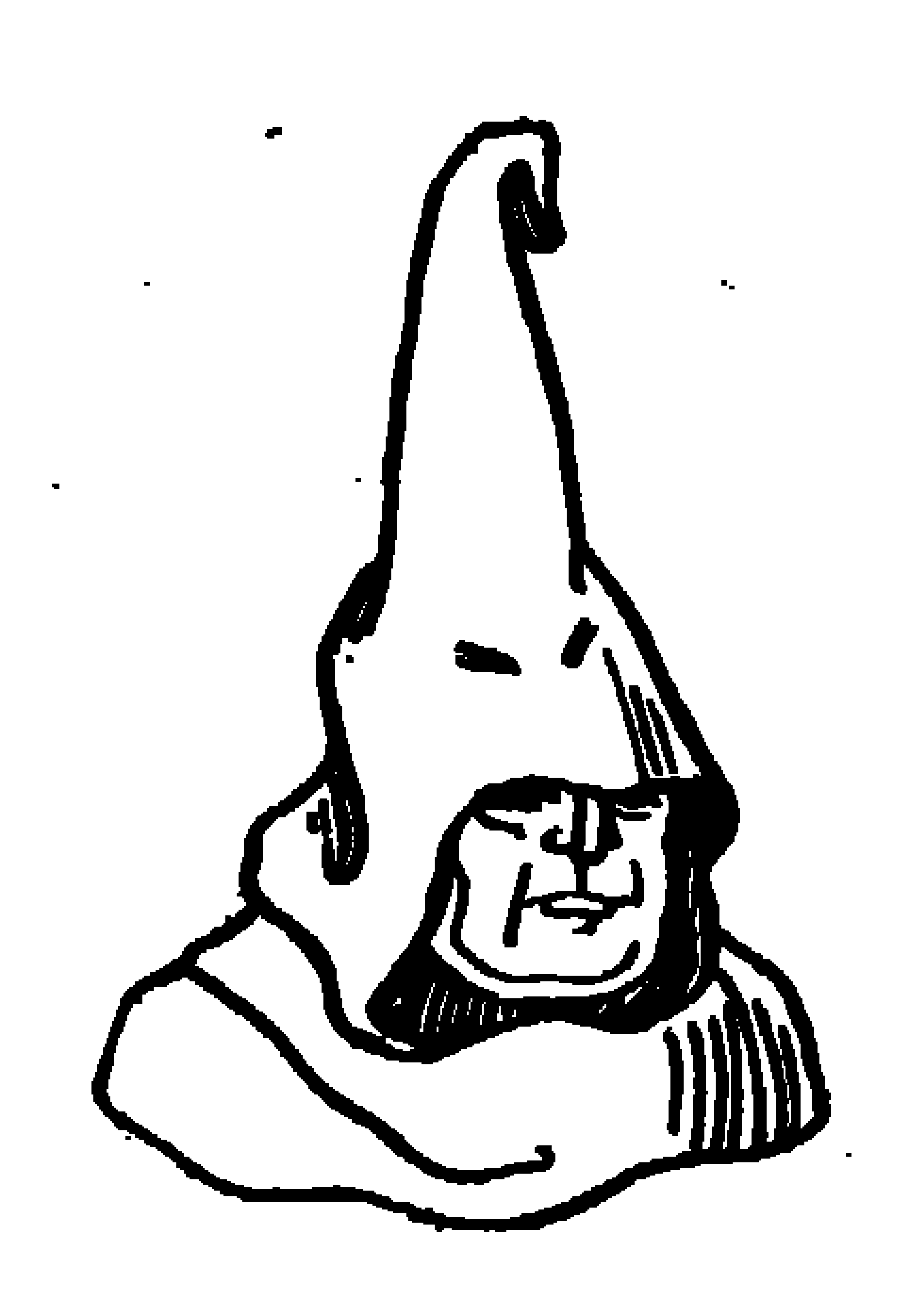
ـ « إذا شاء أصحابك أن يعرفوا اسم الرجل الذى مزّقهم شرّ ممزّق ، فقل لهم إنه دون كيشوت العظيم . أو الفارس صاحب الوجه الكئيب » .

فهزّ الراهب رأسه ومضى فى سبيله . ثم سأل دون كيشوت تابعه لماذا وصفه بذلك الوصف فقال :

ـ « لما رأيتك يا سيّدى فى ضوء المشعل ، ورأيت وجهك متعباً مرهقاً ومشوّهاً بضربة الحجر الذى أصابه ، بدا لى أنه زعيم الوجوه فى الانقباض والكآبة » . فقال دون كيشوت :

ـ « المسألة هى أن المؤرّخ الحكيم الذى سيكتب قصة حياتى رأى أن يكون لى لقب على غرار عظماء الرجال فى التّاريخ فأوحى إليك أن تلقبنى بالفارس الكئيب ، فسوف أتسمى به من اليوم وأرسم على تُرسى وجهاً غريباً كئيباً » .

وابتعد بطلنا وتابعه عن ذلك المكان ، وتوغلا فى مسالك الجبال ، واختارا لهما بقعة جميلة جلسا فيها يأكلان من الأطعمة الشهية التى غنمها سانشو ولكن كان يعوزهما الماء . . .





١٢

عطش سانشو وألحّ عليه العطش بعد ما أكل وشبع فقال لسيّده إن العشب الأخضر الكثيف فى هذه البقعة دليل على وجود ينبوع من الينابيع أو جدول ماء ، فقاما يبحثان عنه ليشربا ويرتويا ، وأمسك كلٌّ بأرسان مطيّته ، وترفقا فى سيرهما لأن الظلام كان حالكاً ، فسمعا بعد مسير دقائق قليلة صوت شلاّل ففرحا ، ولكن شابَ فرحهما ما سمعاه بعد ذلك من أصوات حديد وسلاسل تتخلل صوت الشلاّل ، فدبّ الرّعب فى قلبيهما ، غير أن دون كيشوت ، وهو من نعرف شجاعة وبسالة ، امتطى صهوة حصانه وأمسك ، بترسه وقال لسانشو :

ـ «اعلم يا عزيزى أن الأقدار جعلتنى أولد فى عصر الحديد الكئيب ، ووكلت إلىّ مهمة بعث العصر الذهبى ، فأعمالى العظيمة ستسحب الذيل على أعمال من تقدّمنى من الأبطال والفرسان . فابق هنا وانتظرنى ثلاثة أيام ، فإذا لم أرجع فاذهب إلى توبوزو وقل لأميرتها الحسناء إن فارسها الشجاع قد لقى حتفه فى مصارع المجد » .

فأجهش سانشو بالبكاء وقال :

ـ « ولماذا تريد أن تعرض نفسك يا سيّدى لمثل هذه المغامرة العظيمة؟ فاللّيل شديد الظلام ، وما من أحد يرانا ليستطيع أن يتهمنا بالجبن والخوف. فلنعدل عن طلب الماء ، فوحقك لقد زال عطشى . فإن كنت لا تحفل بالأخطار فاذكر أنى تركت زوجة وأولاداً على أمل أن أظفر بالجزيرة التى وعدتنى بها ، وها أنت ذا تتركنى ، فناشدتك الله يا سيّدى إلا انتظرت حتى يطلع الصباح» . فقال دون كيشوت :

ـ « الواجب . . . الواجب يجب أن يُقْضَى . ولن يقال عن دون كيشوت : أخَّره سواد اللّيل عن القيام بواجبه ، فاتركنى يا سانشو ، والله يرعانى أو يعزيك عن فقدى . هيَّا شدّ أحزمة جوادى» .

رأى سانشو أن عبراته وتوسلاته ذهبت سدًى ، فعزم أن يستعمل الدهاء والحيلة ليحمل دون كيشوت على تأجيل مغامرته إلى الصباح ، فبينما كان يشد أحزمة «السكيت» ربط قائمتيه الخلفيتين بمِقْوَد حماره ،

فلما همّ دون كيشوت بالرحيل استحال على جواده السير فكان يقفز قفزات صغيرة ، فقال سانشو :

— « إن السماء يا سيدى أرحم منك فهى لا تودّ أن تتركنى فمنعت حصانك من أن يطيعك ، فإذا أصررت على عنادك أغضبت السماء فحذار من عقابها الصارم» . فقال دون كيشوت :

— « ليكن ما تريد السماء . . . » فقال سانشو :

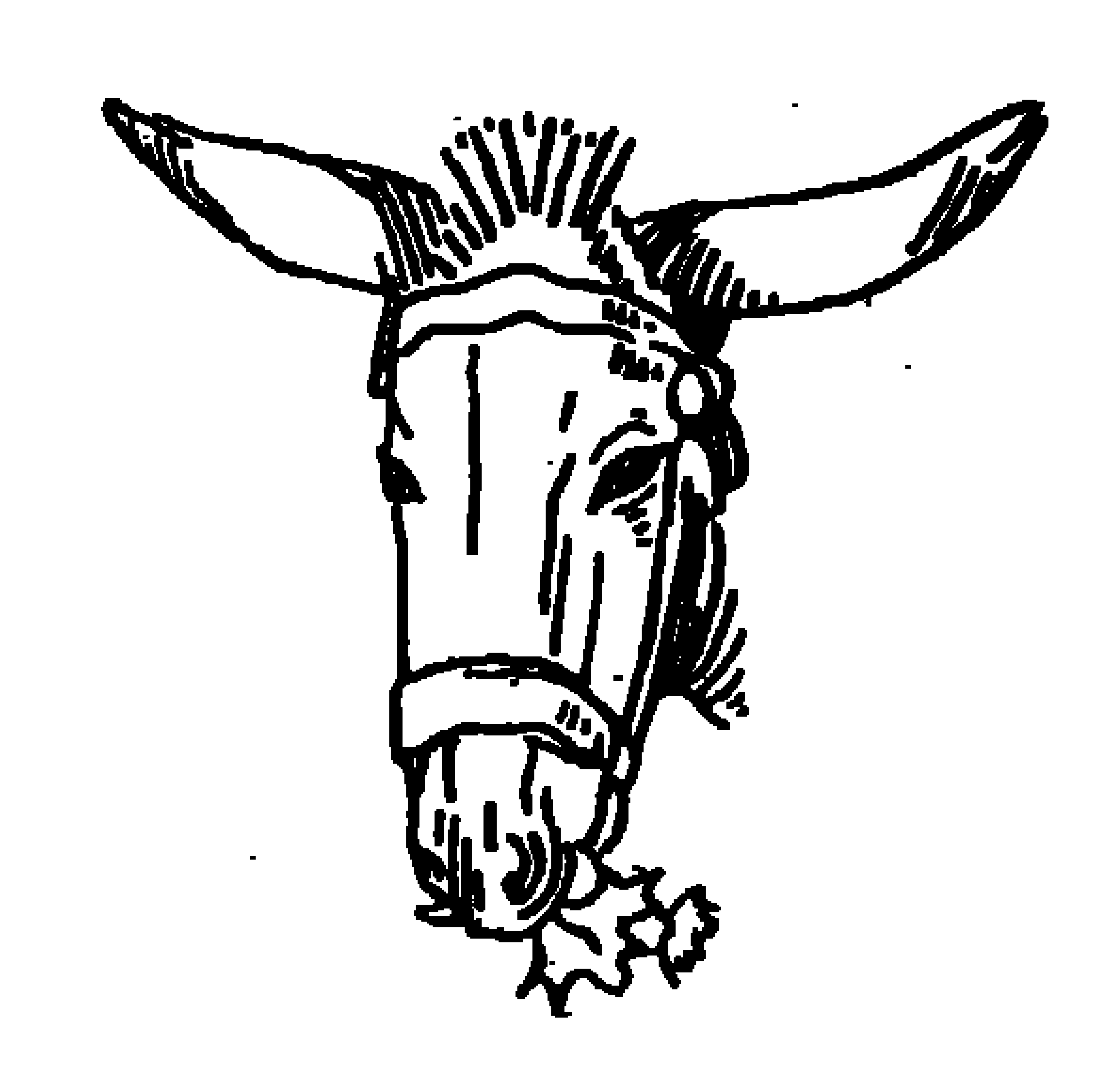
— « رعاك الله يا سيّدى . . . فانزل من حصانك ، ونَمْ على هذا العشب الكثيف كما كان يفعل الفرسان » . فقال دون كيشوت :

— « أأنام ؟ ! أتظننى من أولئك الفرسان الذين ينامون والواجب يدعوهم إلى القتال ؟ نَمْ أنت فقد خلقت للنوم وكفى بأفكارى وشجاعتى لى سميراً » .

ومضى الليل بسواده وظلامه ، وبدأ الفجر يطلع على الكون ، فأسرع سانشو يفكّ رباط « السكيت » فحمحم وأخذ يضرب الأرض بقائمتيه اللتين عصرهما الوثاق فاستبشر دون كيشوت خيراً وتاق إلى الهجوم. فودّع سانشو ثانية وأعاد عليه ما يجب أن يقوله لأميرة توبوزو إذا لم يعد فى خلال ثلاثة أيام ثم قال :

— « أما مكافأتك على خدماتك فتراها مذكورة فى نصّ وصية تركتها فى منزلى . ولكن لعلى أعود منتصراً فتفوز بالجزيرة التى وعدتك بها » .

فبكى سانشو بدموع حارة وقال لدون كيشوت إنه يريد أن يتبعه حتى الموت ، فأثرت عاطفة سانشو فى نفس دون كيشوت فكتم تأثره ومشى فخوراً مختالاً إلى مصدر الصوت . ولحق به سانشو مشياً على قدميه ، جاراً وراءه حماره بل رفيقه فى السراء والضراء ، فوصل الفارس وتابعه إلى وادٍ صغير تحيط به صخور عالية ينفجر منها الماء ، وينحدر فى شلال عظيم . فمشيا إليه ، ولما صارا على مقربة منه ، لاحت لهما وراء تل من التلال سلسلة من المنازل القديمة المتهدمة ، فهبطا إليها ؛ وحدث عن دهشتهما ولا حرج عند ما شاهدا ست مطارق لست طاحونات صاعدة نازلة ، لا تكف عن الطرق والطحن فكانت مصدر الأصوات العنيفة التى سمعاها ، فتبادل دون كيشوت وسانشو النظرات وانطلق الرجلان يقهقهان ضاحكين .





١٣

ضحك دون كيشوت وسانشو ملء شِدقيهما ثم تناولا بعض الطعام، وشربا من ماء الشلال الزُّلال ، ثم ركب كلٌّ مطيته واستأنفا السير فى الطريق العام ، فوقع نظر فارسنا فى أثناء السير على جماعة من الرجال ضُربت على أيديهم الأغلال ، ورَبَطت بعضَهم ببعض سلسلةٌ طويلة من الحديد، ويسوقهم فارسان مسلّحان ، وجنديّان راجحان ، فقال سانشو لسيّده وقد رآه يطيل النظر فى هؤلاء الناس :

— «إنهم أناس محكوم عليهم بالأشغال الشاقة يقودهم الجنود ليجذّفوا فى مراكب الملك » . فقال دون كيشوت :

— « وكيف يلزم الملك رعاياه أن يعملوا فى مراكبه كرهاً وقسراً ؟ »
فقال سانشو :
— « قلت لك يا سيّدى إنهم قوم محكوم عليهم بالأشغال الشاقة ».
فقال دون كيشوت :
— « كفى . كفى . لقد فهمت. وإنى لأعرف ما يمليه علىّ الواجب »
واقترب دون كيشوت من الحرّاس وسألهم بأدب لماذا يسوقون هؤلاء الأشقياء على تلك الحال الزرية ، فردّ عليه أحدهم قائلاً :
— « يطول بنا الحديث يا سيّدى لو ذكرنا لك الذنب الذى اقترفه كلٌّ من هؤلاء، فلو سألتهم واحداً واحداً لأجابوك ، فهم قوم يحبُّون الثرثرة » .
فاكتفى دون كيشوت بهذا الإذن ، وتقدّم من أحد هؤلاء المساجين وسأله عن الذنب الذى من أجله يساق إلى الأشغال الشاقة فقال :
— « لأنى عاشق يا سيّدى » . ففكر دون كيشوت فى أمره وقال فى نفسه لو كان الحب ذنباً لكان علىّ أن أجذّف فى سفن الملك منذ زمن طويل ، ثم صحا فى تفكيره على صوت محدّثه وهو يقول له :
— « نعم يا سيّدى . . . لأنى عاشق فقد عشقت صرّة من الذهب كانت فى حوزة بخيل عجوز فسرقتها وألقِىَ علىّ القبض وهى فى يدى ، واستعملوا معى القوة لكى ينتزعوها منى ، فقد كانت عزيزةً على نفسى ،



حبيبة إلى قلبي فحكمت علىّ المحكمة بمئة جلدة وبالشغل ثلاث سنوات فى البحرية الملكية » .

والتفت دون كيشوت إلى مذنب آخر كان يمشى مطرق الرأس فسأله عن ذنبه فقال :

ـ « أساق إلى الأشغال الشاقة لأنى كنت حرًّا صريحاً » . فقال دون كيشوت :

ـ « كيف هذا والصراحة فضيلة يحمد الإنسان عليها ؟ » فقال الرجل :

ـ « إن قضاة هذا الزمان لا يخجلون من الحكم على الصراحة ، فقد سألونى عن بعض الماشية المسروقة وأغلظوا لى فى الأسئلة وأمعنوا فى التهديد فقلت لهم بصراحة : إنى وجدت تلك الماشية تائهة فى البرّية فدعانى حبى لحياة الرعاة أن أستولى عليها فكان هذا الإقرار الصريح سبباً فى الحكم علىّ بمئتى جلدة وبالشغل ست سنوات » .

ثم سأل دون كيشوت ثالثاً ورابعاً فاكتفى بما سمع ، فقال لهم بصوت عال :

ـ « من الواضح يا إخوانى أنكم ذاهبون إلى الأشغال الشاقة تكفيراً عن ذنوب ارتكبتموها ، ولكنكم لا تذهبون إليها مسرورين ولا عن طيب خاطر ، ولقد فكرت فى شأنكم فرأيت من واجبى أن أشملكم بأول

مقتضيات الفروسية وهو مساعدة المظلومين ، ولما كانت الحكمة توصى باستعمال اللين والتعقّل قبل استعمال القوّة والعنف فإنى أتشرّف ياحضرات الحراس بأن أرجو منكم التفضّل بفكّ أغلال هؤلاء التاعسين وإطلاق سراحهم ، وإلا اضطررت إلى أن أكرهكم على ذلك إكراهاً » . فقال رئيس الحرس ضاحكاً :

ــ « لا بأس بالمداعبة . . . هيَّا يا سيّدى واستأنف مسيرك ولا تحاول أن تعدّ شَعَرات القطّ ! » فقال دون كيشوت ساخطاً :

ــ « أنت القط وأنت الجُرَذ » .

وبطعنة رمح ألقاه إلى الأرض، فهبّ بقيَّة الحراس إلى نجدة رئيسهم شاهرين السيوف ، واغتنم المساجين الفرصة فعمدوا إلى تحطيم أصفادهم ، فحار الحراس بين الدفاع عن أنفسهم وبين منع المساجين من الهرب ، وكان سانشو يساعد أحد المساجين على كسر قيده ، فلما أصبح طليقاً هجم على رئيس الحرس المنطرح على الأرض ، وخطف منه سيفه ، ولوّح به فى وجوه الحرس فهربوا كلهم .

وانتهت المعركة بنصر شامل غير أن سانشو كان قلقاً فهمس فى أذن دون كيشوت أن صواب الرأى أن يركنا إلى الفرار ، فلم يكترث دون كيشوت لما سمع بل جمع السّجناء وقال لهم :

ــ « إن عرفان الجميل أعزّ الفضائل على القوم الصالحين ، فقد

رأيتم ما فعلت من أجلكم ، وأظنكم تريدون أن تردّوا لى الجميل ، فخذوا أغلالكم التى نزعتها عنكم ، وسيروا إلى مدينة توبوزو ، وقدّموا أنفسكم لأميرتها الحسناء وقولوا لها إن عبد جمالها الفارس الكئيب يحيّيها ، وقصّوا عليها كيف حطّمت قيودكم ثم اذهبوا حيث شئتم » . فقال أحدهم :

— « إن هذا ضرب من المحال يا سيّدى ، فإن نحن سرنا جماعة إلى توبوزو وقبض علينا رجال الشرطة فإننا مضطرون إلى التفرّق والاختباء » .

فاحتدم دون كيشوت غيظاً وقال :

— « إذن تذهب وحدك أنت والقيد فى يديك » .

فنفد صبر السجين ، وغمز رفاقه فابتعدوا معاً دفعة واحدة ، وأخذوا يعطرون دون كيشوت وسانشو بالحجارة ، فاحتمى هذا وراء حماره غير أن دون كيشوت انقلب عن جواده وخرّ مغشياً عليه .





١٤

شقّ على دون كيشوت أن يقابل السجناء إحسانه إليهم بالإساءة فقال لسانشو :

ـ « ما أصدق الذى يقول : إذا أنت أكرمت اللئيم تمرّد. ولسوف أكون فى المستقبل أصوبَ حكماً على الناس » . فقال سانشو :

ـ « هيهات ! فلن تنقلب حكيماً رزيناً إلا إذا انقلبت أنا تركيًّا . فمن الخير يا سيدى أن تركب حصانك وتستأنف السفر » .

فتوغّل دون كيشوت فى شعاب الجبل يتبعه سانشو كئيباً متنهّداً فمرّت بخاطره فكرة أرضته ، فساق حماره إلى محاذاة حصان سيّده وقال :

— « كنتَ يا سيّدي ستبعثني رسولاً إلى أميرة توبوزو ، وطلبتَ إلىّ أن لا أسافر إلا بعد ثلاثة أيام ، فهب هذه الأيام الثلاثة قد انقضت ، فاسمح لى أن أذهب إلى الأميرة وأبلغها رسالتك ؟ »

فأعجب دون كيشوت بالاقتراح ، وانتحى جانباً من الطريق ، وكتب رسالة تفيض حبًّا وشوقاً إلى حبيبته ، وسلمها إلى سانشو وتمنّى له سفراً سعيداً وعودًا حميداً .

حثّ سانشو حماره فمشى به مسرعاً يصعّد فى التلال ويهبط منها إلى السهول حتى وصل إلى ذلك الفندق اللعين الذى داعبه فيه الفتيان الأشدّاء أقسى مداعبة ، فأراد أن يبتعد عنه ولا يدخله ، ولكن الجوع الكافر كان يزين له النزول بالفندق . وبينما كان فى حيرة وتردّد ، فتح باب الفندق وخرج منه رجلان ما كادت أنظارهما تقع عليه حتى قال أحدهما للآخر :

— « يا سيّدى القسيس ! أليس هذا الرجل هو سانشو الذى أخبرتنا مدبّرة منزل صاحبنا المغامر أنه اتبعه فى أسفاره ؟ » فقال القسيس :

— « بلى . . هو بعينه » .

وكان الرجلان قسيس القرية وحلاّقها ، وقد عرفناهما من قبل ، فاقتربا من سانشو وخاطبه القسيس قائلا :

— « ياعزيزى سانشو ! ماذافعلت بسيّدك؟ » فقال سانشو وقدعرفهما :

— « يا سيّدى القسيس ! إن سيّدى فى مكان ما ، وهو مشغول بجلائل الأعمال ، ولست فى حلٍّ من أن أطلعكما عليها » . فقال الحلاّق :

— « إن تكتّم سانشو دليل على أنه سرق سيده » . فدبّت النخوة والاستقامة فى صدر سانشو فقال :

— « لا يا سيّدى ! ما سرقت أحداً فى حياتى ، وحبذا لو كان كثير من الناس قادرين على أن يصرّحوا بمثل هذا التصريح . إن سيّدى فى ركن من أركان هذه الجبال ، وقد بعثنى رسولاً إلى حبيبته أميرة توبوزو » .

فاستغرب القسيس والحلاّق من هذا الجنون الجديد الذى طرأ على صاحبهما ، فطلبا من سانشو أن يطّلعا على الرسالة .

فمدّ سانشو يده إلى جيبه ليخرج الرسالة فلم يجد شيئاً لأنه كان قد نسى الرسالة ، فاصفرّ وجهه ، وقلب جيوبه كلها فلم يعثر على شىء ، فأخذ ينتف شعره ، ويصفع نفسه حتى استوقفه القسيس سائلاً :

— « ماذا بك يا صديقى ؟ » فقال سانشو :

— « ماذا بى ؟ ! لقد فقدت الرسالة التى أحملها إلى الأميرة » .

فهدّأ القسيس روعه ، ولما رجع إلى نفسه تبسم وقال :

— « لا بأس من ضَياع الرسالة فإنى أحفظها عن ظهر قلبى » .

فأثنى الرجلان على ذاكرته العجيبة ، ودعَواه إلى تناول الطعام فى الفندق فأبى إباء شديداً ، ورجا منهما أن يرسلا إليه بعض الطعام ،

ووعدهما أن سيخبرهما فيما بعد عن سبب إحجامه عن دخول الفندق ، فتنزلا عن رغبته .

ولم ينقطع القسيس عن التفكير فى طريقة يحملان بها دون كيشوت على العودة إلى قريته ، فوصل به التفكير إلى أن يتزيا أحدهما فى زى سيدة مبرقعة ، والآخر فى زى تابع لها ، ويذهبا إلى دون كيشوت فترتمى السيدة عند قدميه تسأله النجدة والمعونة والثأر لها من فارس شرير ، وتطلب إليه أن لا تكشف عن وجهها إلا بعد انتصاره على خصمها ، وهكذا يعودان به إلى القرية ويشفيانه من حمقه وجنونه .





١٥

كاد سانشو يستلقى على قفاه من الضحك عندما رأى القسيس والحلاق خارجين من الفندق فى ذلك الزىّ الذى تخيّلاه ، فشرحا له خطتهما ، وأفهماه أنها الوسيلة الوحيدة لإخراج دون كيشوت من عزلته ، فيستطيع أن يهتمّ بنفسه ليصبح إمبراطوراً ، وعندئذ يكافئ سانشو المكافأة السنية . فشكرهما سانشو ووعدهما بحفظ السر ، ثم اتّجه الثلاثة إلى الغابات والجبال ، فقضوا اللّيل فيها ، واستأنفوا السير فى الصباح حتى اقتربوا من مكان دون كيشوت ، فاستراحوا قليلاً ، وتشاوروا فيما بينهم فقرّ قرارهم على أن يُفضى سانشو إلى دون كيشوت بنتيجة السفارة التى

قام بها ، وأن يقول له إن الأميرة الحسناء لم تجبه عن رسالته لأنها لا تعرف الكتابة ، وهى تؤثر أن تعطيه الجواب فماً لفم . فوعد سانشو أن ينفّذ الخطّة بحذافيرها .

وجلس القسيس والحلاّق على ضفّة ساقية صغيرة ينتظران عودة سانشو ، وبعد مدة وجيزة طرقت مسامعهما أصوات غناء جميل ، فنهض القسيس إلى مصدر الصوت يتبعه رفيقه ، فشاهدا عن بُعْدٍ فلاّحةً جميلة تغسل قدميها فى مياه الساقية ، وسمعا فى الوقت نفسه سانشو يناديهما بصوته الجَهْوَرِىّ ، فقد عاد من لقاء دون كيشوت ، فلما لم يجدهما فى المكان الذى تركهما فيه ، مضى يبحث عنهما منادياً صارخاً ، حتى إذا صار إليهما أخبرهما أن دون كيشوت فى حال جديرة بالرثاء والحزن ، فقد رآه لا يستر جسمه إلا القميص ، ولا يذوق طعاماً ولا شراباً وإنما يتغذّى بالزفير والعذاب ومناجاة حبيبته حتى شحب لونه ، وهزل بدنه ، وصار أقرب إلى الأموات منه إلى الأحياء . ولقد رفض أن يسير إلى أميرته ما لم يقم بأعمال باهرة تجعله كفؤاً لها ، فأدخل القسيس فى روع سانشو أن دون كيشوت لن يصبح أبداً إمبراطوراً ما دام معتصماً بالجبال ، وعلى ذلك فلن يظفر سانشو بالمكافأة الجزيلة . وكانت الفلاّحة فى هذه الأثناء منصرفة عن الساقية ، فاعترض القسيس طريقها وحكى لها حكاية دون كيشوت ، ورجا منها أن تنوب عنه فى التزيى فى زىّ المرأة الحزينة ،

فقبلت ، واستأذنته قليلا ثم عادت متزينة متبرّجة كبعض نساء الأشراف اللواتى قرأت عنهن كثيراً فى الكتب ، وحار سانشو فى أمرها ، وتساءل عنها فقيل له إنها سيدة غالية المقام ، جاءت تستنجد بدون كيشوت ليثأر لها من خصم أنزلها عن عرشها واستوى عليه .

سارت الفتاة والحلاّق ودليلهما سانشو ، وبقى القسيس ينتظرهم ، وبعد مسير ساعة وصل الركب إلى حيث كان دون كيشوت ، فأسرع الحلاّق وأنزل الفتاة عن دابّتها . فركضت ترتمى عند قدمى دون كيشوت ، وكان مرتدياً ملابسه الكاملة إلا سلاحه ، فحاول جاهداً أن ينهضها فقالت له :

— « لا ، لا أيها السيد العظيم والفارس المغوار ! لن أتحرك من موقفى هذا ما لم تعدنى بتحقيق أمر عظيم » . فقال دون كيشوت :

— « سأكون عند حسن ظنك يا سيدتى الجليلة إلا إذا كان ما تطلبين يتعارض ومصلحة الوطن أو مصلحة مليكة فؤادى » . فقالت :

— « أطلب منك أيها الفارس الكريم أن تصحبنى فى الحال إلى حيث أقودك لتثأر لى من خائن غدّار اغتصب عرشى » . فقال دون كيشوت :

— « اطردى يا سيدتى عنك الحزن والكآبة ، وثقى أن ذراعى هذه الثقيلة على المستبدّين الغاشمين ، ستجلسك عما قليل على عرش آبائك وأجدادك . فهيّا بنا هيّا ، فكل دقيقة يخسرها الإنسان فى سبيل المجد

لا تعوّض » .

واستدار دون كيشوت إلى شجرة كان قد علّق عليها سلاحه فتدجّج به ، ثم أقبل إلى السيدة لينهضها فأرادت أن تقبّل يده فسحب يده بلطف وأدب وأعطى إشارة المسير .

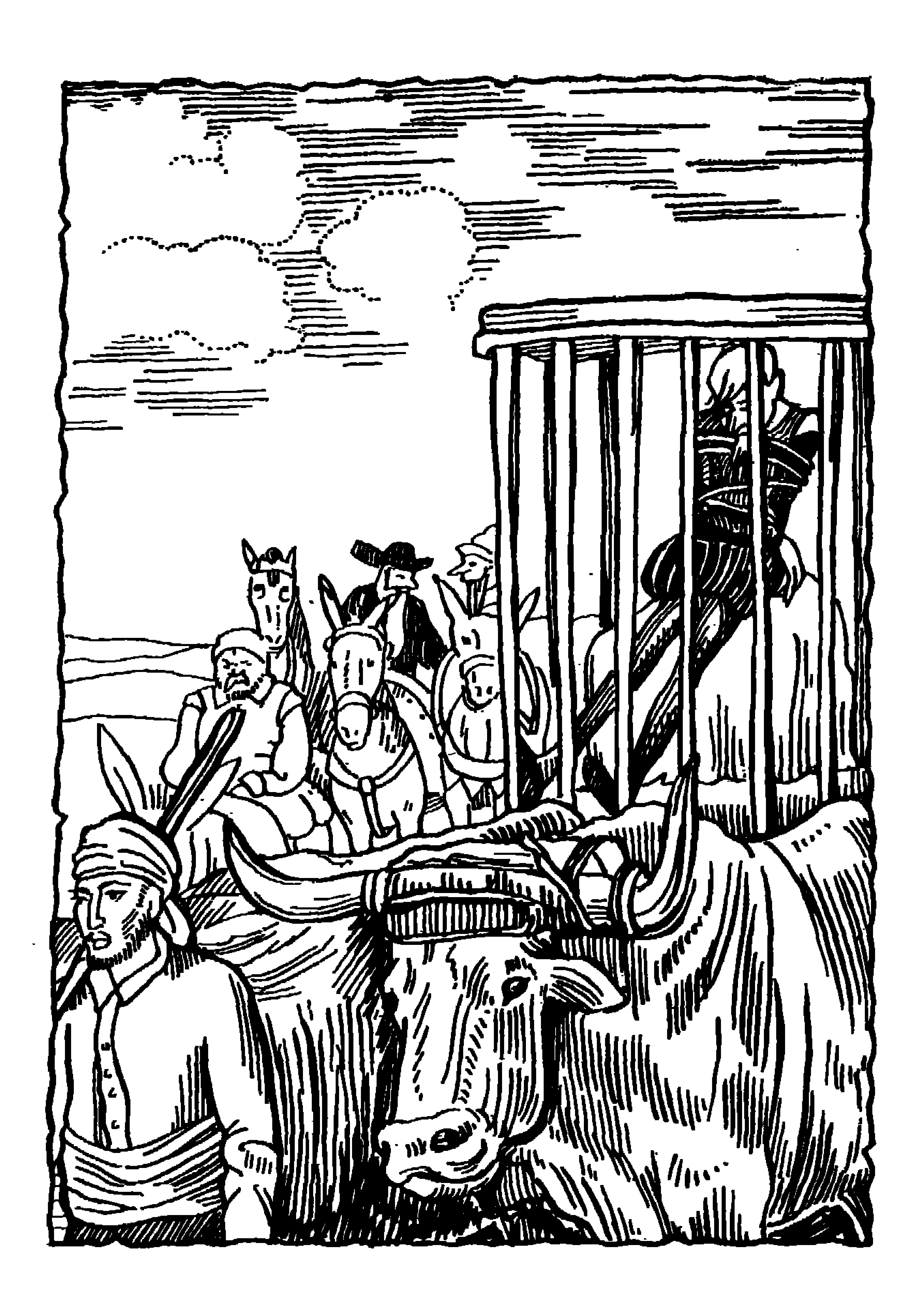
ومرّت القافلة بالقسيس وهو مختبئ وراء الأشجار ، فلم يدْرِ كيف يلحق بالقافلة لأن دابّته كانت قد ركبتها الفتاة فسلك درباً صغيراً يعرفه ، فلم يكد يخرج منه إلى الطريق العام حتى قابل القافلة وجهاً لوجه . فتظاهر بالدّهش عند ما رأى دون كيشوت ، ثم حملق فيه قليلاً وتقدّم إليه باسطاً ذراعيه وهو يقول :

ـ « لا ، لست واهماً . . . إنك أخي وصديقي دون كيشوت دي منشا فارس الفرسان ونصير المظلوم وزهرة الفرسان التائهين » .

حدّق دون كيشوت ، قليلاً في محدّثه فعرفه ، وأراد أن ينزل له عن الدّابة فقال القسيس :

ـ « معاذ الله أيها السيد العظيم ، فابْقَ على جوادك فإنه محطّ المجد والفخار ، أما إذا شاء أحد الرفاق أن يردفني وراءه على دابّته كنت سعيداً في أن أكون في عداد حاشيتك » .

فبادر الحلاّق إلى القسيس ودعاه إلى أن يشاطره دابّته فقبل شاكراً . ووصلت القافلة في اليوم التالي إلى الفندق الذي يخشاه سانشو ، فعرف



أصحابه وخدمه دون كيشوت ، فأنزلوه فى نفس الغرفة التى كان قد بات فيها فاستلقى إلى سريره متعباً ونام نوماً عميقاً .

ومكث القوم يومين فى هذا الفندق ، وشكر القسيس للفتاة التى تزيَّت فى زِىّ الأميرة الحزينة جهدها وحميَّتها ، وطلب إليها أن لا تكلف نفسها مؤونة متابعة السفر فهم سيتكفَّلون بتنفيذ بقية الخطة المرسومة فعادت إلى قريتها .

وفى خلال اليومين استصنع القسيس قفصاً كبيراً من الخشب المتين يتسع لدون كيشوت طولاً وعرضاً ، وأمر بوضع القفص على عربة مكشوفة يجرها ثوران . واغتنم القوم فرصة رقاد دون كيشوت فجاءوا إليه مقنّعين ، وربطوا يديه ورجليه ووضعوه فى القفص ثم حملوه إلى العربة ؛ فلما أفاق دون كيشوت من سُباته ، وشاهد حوله تلك الوجوه المقنَّعة ، وشعر أنه مقيد لا يستطيع حراكاً ، لم يشكّ فى أنه فريسة السحر ورهينة الأشباح ، فلزم الصمت والسكون كأنه تمثال من التماثيل .

وفى ضُحى اليوم التالى ، وصلت القافلة إلى قرية دون كيشوت ، وكان اليوم يوم أحد ، والفلاحون متجمهرين فى ساحة القرية ، فعرفوا جارهم دون كيشوت ، والتفُّوا حول العربة وصحبوه إلى منزله . وكان صبيان القرية قد سبقوا الركب يبشرون أهل المنزل بعودة سيده .

تركت مدبرة المنزل شغلها وجرت معها ابنة أخت دون كيشوت

وخرجتا تستقبلان العائد العزيز ، فلما رأتاه على تلك الحال ولولتا وهرعتا إلى دون كيشوت فحملتاه إلى غرفته ، وطرحتاه على السرير . وأوصاهما القسيس أن يعتنيا به كل العناية ، وأن تسهرا عليه وتحولا دونه إذا خطر له أن يرحل عن منزله مرة ثالثة . أما سانشو فقد كانت زوجته فى جملة المستقبلين والمستقبلات ، فارتمت عليه تقبله وتسأله عن الهدايا والتحف التى جاء بها فطمأنها وقال : كل البشائر تدل على أنك ستكونين حاكمة على جزيرة كبيرة فى المستقبل القريب . . .





القسم الثانى

١٦

عملت السيّدة والفتاة بنصيحة القسّيس ، فاعتنتا بدون كيشوت عناية فائقة ، وبدا لهما فى هدوء الرّجل وسكونه أن قد عاد إليه رشده ، فأخبرتا صديقيه بذلك معتزّتين مسرورتين ، فجاءا يزورانه وقد آليا على نفسيهما أن لا يحدّثاه أبداً عن الفروسية والفرسان حتى لا ينكآ فى صدره جرحاً لمّا يندمل .

دخل القسيس والحلاّق على دون كيشوت فرأياه جالساً فى سريره وعلى رأسه قبّعة حمراء ، وكان من الضّعْف والهُزال أشبه بالمومياء ، فسلما عليه مستفسرين عن صحته ، وقضيا عنده ساعتين يحدّثانه ويحدّثهما فى مختلف

الموضوعات والشؤون فأيقنا أن صديقهما قد هجرته اللوثة وعاد إلى مصافّ العقلاء .

ولقد قطع على القوم حديثهم صوتُ قرع عنيف على باب الدار ، فنهض دون كيشوت من فراشه ، وخرج إلى صحن الدّار يتبعه الحلاّق ، فشاهد مدبرة المنزل وابنة أخته تشتمان سانشو من وراء الباب ، ولا تريدان أن تسمحا له بدخول المنزل ، فأمرهما دون كيشوت بفتح الباب وإدخال تابعه سانشو ورفيقه فى المغامرات والدفاع عن العدالة .

ولشدّ ما خيّب هذا الكلام أمل القسيس والحلاّق ، فأدركا أن جارهما لا يزال ملتاث العقل ، فودّعاه وانصرفا . وخلا دون كيشوت بسانشو فقال له :

— « عزّ علىّ أن تتبادل وأهل بيتى الشّتائم والسباب ، فهلاّ ذكرت أننا اتفقنا معاً على توحيد المصير وخوض المغامرات؟ ! ولكن مالنا ولهذا الآن . . . حدّثنى عن أهل القرية والفرسان والأبطال ماذا يقولون عن شجاعتى وإقدامى ؟ أجبنى فى صراحة التابع الصريح المخلص » . فقال سانشو :

— « أتعدنى يا سيدى أن لا تغضب إذا نقلت إليك آراء الناس فيك ؟ » فقال دون كيشوت :

— « أعدك . . . تكلم فى حرية وصراحة . . . » فقال سانشو :

— « سكان القرية كلهم مجمعون على أنك مجنون . . . وعلى أنى لست أقل منك جنوناً . . . » فقال دون كيشوت :

— « لم تدهشنى بهذا الكلام ، فقديماً ألَبَّ الحسد الناس على الإسكندر وسواه من العباقرة . . . » فقال سانشو :

— « يا ليت الأمر وقف عند هذا الحد . . . فلقد كتبوا قصّتك وطبعوها ونشروها بين الناس ، ولم يغفلوا ذكرى فيها وذكر حبيبتك أميرة توبوزو . . . والذى أخبرنى بذلك فتى متعلم يدعى " كاراسكو " وهو يعرف المؤلف ، فهل تريد أن أقوده إليك ؟ » فقال دون كيشوت :

— « يسرّنى جداً أن أراه » .

فطار سانشو إلى الباب ليبحث عن كاراسكو ويأتى به ، وقام دون كيشوت يذرع الغرفة طولاً وعرضاً ويناجى نفسه : أنىّ لهم أن يكتبوا قصّة أعمالى الباهرة ويطبعوها وينشروها ، وسيفى لا يزال يقطر بدماء الذين قهرتهم وتغلبت عليهم ؟ ! ... أصديقاً تراه أم عدواً ؟ أخشى ما أخشاه أن يكون قد انتقص من شجاعتى ، ولم يقدّر الحب الطاهر الذى أكنّه لأميرة توبوزو

وقطع على دون كيشوت حبل تفكيره دخول كاراسكو عليه ، وكان فتى فى الرابعة والعشرين من عمره نحيف البنية ، برّاق العينين ، ذكىّ الفؤاد ، وافر الخبث والدّهاء . فما كاد يمثل بين يدى دون كيشوت حتى

ركع وقال :

— « اسمح يا سيّدي أن ألثم يديك، وأن أحيّي فيك بطل الأبطال وفارس الفرسان فى الماضى والحاضر والمستقبل ، فشكراً لذلك المؤرّخ الحكيم الذى كتب للخلود قصّة حياتك العظيمة » . فقال دون كيشوت :

— « أصحيح إذن أن قصّة حياتى طبعت ونشرت ؟ ! » فقال كاراسكو :

— « طبع ونشر منها ألوف مؤلفة من النسخ ، ففى كل مدينة وكل قرية من إسبانيا والبرتغال نسخ منها بين أيدى الناس. وهى الآن تترجم وتطبع فى بلجيكا ، ولسوف تترجم عن قريب إلى جميع لغات العالم فيعرف الناس من هو دون كيشوت . . . إن قصّتك يا سيّدى يتخاطفها الشيوخ والشّباب والأطفال . . . ولست أدرى أفات المؤلف شىء من أعمال بطولتك أم سردها كلها ؟ . . . » فقال سانشو :

— « أنا كفيل بتزويده بجميع ما عندى من الأنباء والأخبار » .

فقال كاراسكو :

— « سأنقلها إليه ليودعها الجزء الثانى من الكتاب » . فقال دون كيشوت :

— « وهل هناك جزء ثان ؟ » فقال كاراسكو :

— « أجل يا سيّدى .!أتظنّ أن أعمالك الباهرة يمكن أن يستوعبها

جزء واحد أو جزآن من كتاب ؟ » فقال سانشو :

— « أوَيظن هذا المؤلف الأحمق أن أعمال سيدى الجليلة قد وقفت عند حدّ ؟ أوَ يحسبنا سنعيش مكتوفى الأيدى ؟ »

وسُمع فى هذه اللحظة صهيل « السكّيت » حصان دون كيشوت فاستبشر بطلنا خيراً ، وقرّر استئناف مغامراته ، وحدّد لذلك موعداً ، وأوصى سانشو أن يتأهب للرّحيل فى الموعد المضروب كما أوصى كاراسكو بكتمان السرّ .





١٧

عاد سانشو إلى منزله ظاهر الغبطة والفرح ، فسألته زوجته عن سبب سروره فأخبرها أنه سيصحب سيده دون كيشوت إلى المغامرات ، ويرجو أن يعود بأكياس من الذّهب . وأوصاها أن تزداد عناية بحماره فى هذه الأيام الثلاثة قبل الرّحيل ، فسفره ليس سفر نزهة ومتعة وإنما هو مقارعة الأبطال ومقاومة الأشباح فقالت له :

ـــ « ألا تفكّر فى هذه الأخطار التى تعرض نفسك لها ؟ » فقال :

ـــ « يا عزيزتى ! إن الأخطار هى سبيل المجد » .

وما زال بها حتى رضيت برحيله . وفى أصيل اليوم المحدّد خرج

دون كيشوت وسانشو يضربان فى عرض البلاد ، وجرت مدبّرة المنزل والفتاة إلى قسّيس القرية وحلاّقها تخبرانهما بالفاجعة . وهما تبكيان .

كان دون كيشوت فى أثناء سيره مشغول الفكر بالسِّحر والسَّحَرَة وأعمالهم الشيطانيَّة ، فصحا من تفكيره على صوت عربة مقبلة نحوه ، فرفع نظره إليها فوقع على منظر غريب عجيب . كانت العربة مكشوفة وممتلئة بأشخاص تبعث رؤيتهم على الدّهشة والاستغراب فقد كان السائق فى زى إبليس ، وكان وراءه تمثال الموت فى شكل هيكل إنسان عظمىّ ، وملاك باسط جناحين كبيرين ، وإمبراطور معصّب بإكليل من الذّهب ، وكان عند أقدام هؤلاء ملاك الحبّ ممسكاً بقوس فى يده ، ومحارب شاكّ السِّلاح ، وصور أخرى لا تقل غرابة وشذوذاً .

استولت على دون كيشوت الدّهشة فوقف جواده فى حين كان سانشو ينتفض من الرّعب ، وما هى إلا دقائق قليلة حتّى استعاد دون كيشوت رباطة جأشه فاعترض العربة وقال :

— « أيها الأبالسة ! أيّاً كنتم فقولوا لى من أنتم ؟ ومن أين جئتم ؟ وإلى أين تذهبون ؟» فقال المتزيّى فى زِىّ الشيطان :

— « سيدى ! إنما نحن جوقة تمثيل نطوف القرى ، فى هذا الصباح كنّا فى القرية التى تراها وراء هذا التّل ، فمثلنا فيها رواية "مملكة الموت" وسنمثّلها هذا المساء فى القرية التى تراها على مرمى بصرك ، فلم نشأ أن



نغيّر ملابسنا اقتصاداً في الوقت » . فقال دون كيشوت :

ـ « ظننت القدر قد خبّأ لى مغامرة عظيمة . لله درّ الذى قال : يجب على الإنسان أن لا ينخدع بالمظاهر . اذهبوا يا سادة إلى عملكم ، وإذا رأيتم أنى أصلح لتمثيل دور من الأدوار معكم فلن أتأخر عن مساعدتكم ، فمنذ طفولتى وأنا أحبّ التّمثيل والممثلين » .

وبينما كان دون كيشوت يحدّث الممثلين بمثل هذا الحديث ، وصل إليهم رفيق كان متأخراً عنهم ، وكان لابساً ثوباً متعدّد الألوان ، ممتلئاً بالأجراس ، فكلما قفز قفزة سُمع لرنين الأجراس دوىّ شديد ، فجفل حصان دون كيشوت وأطلق قوائمه للرّيح مذعوراً ، فترجل سانشو عن حماره مسرعاً ، وجرى وراء الحصان ، فما كان من صاحب الأجراس إلا أن قفز إلى ظهر الحمار وطار به إلى القرية ، وفى تلك اللحظة تعثّر « السّكّيت » فسقط وسقط فارسه إلى جانبه ، فتحيّر سانشو أينهض سيّده أم يلحق بحماره ، فتغلّب فى صدره عامل الواجب ، وركض إلى سيّده فأنهضه وأجلسه فوق متن الحصان ، وقلبه يتفطر حزناً على حماره فقال :

ـ « سيّدى ! إن الشيطان قد طار بحمارى » . فقال دون كيشوت :

ـ « سأعيده إليك ولو من أعماق الجحيم » .

وما كاد دون كيشوت يتمّ عبارته حتى كبا الحمار براكبه وعاد يسابق الريح إلى صاحبه فقال سانشو :

— « ها هو ذا يا سيدى قد عاد إلىّ فلا تحنق ولا تغضب » .

— «أتظنّنى أترك الشّيطان بغير عقاب ؟ » وجرى وراء العربة متوعداً مهدّداً ، فلما رآه الممثّلون مقبلاً عليهم يتطاير الشّرر من عينيه ، نزلوا من العربة ، وجمعوا كمية من الحجارة ، واتخذ كل منهم موقفاً معبّناً ، وانتظروه مستعدّين متحمسين ، فوقف دون كيشوت ليدبّر فى ذهنه خطة الهجوم فقال له سانشو :

— « أليس من خطل الرأى يا سيّدى أن يحارب رجل واحد جيشاً قائده الموت وجنوده أباطرة وملائكة ؟ فضلا عن أنه ليس فى هؤلاء الناس فارس تائه » . فقال دون كيشوت :

— « إنك لعلى صواب يا سانشو ، فهذه قضية تخصّك وعلىّ أن لا أكون فيها إلا شاهداً أزوّدك بالنصائح ، فهيا جرّد سيفك يا ولدى واثأر لحمارك » .

— « إنى وحمارى نصفح عن أعدائنا وننسى الإساءة » .

— « إذا قادك الحلم إلى الصّفح فلنترك إذن هؤلاء الأشباح ولندّخر أنفسنا لمغامرات جديرة بنا » .

قال هذا وأدار عنان حصانه سائراً فى سبيله ، فركب « الموت » وزملاؤه عربتهم وساروا هم أيضاً فى سبيلهم .



١٨

سار دون كيشوت وسانشو على مَهَل يتجاذبان أطراف الحديث ، فمرّ بهما فارس قد اعتلى متن جوادٍ أصيل ، وارتدى معطفاً أخضر مزركش الأطراف بمخمل بنفسجيّ ، ولبس قبعة من المخمل نفسه ، وقد شدّ إلى وسطه حزاماً فاخراً تدلّى منه خِنْجَر عربى ثمين القراب ، وعلّق فى حذائه مهمازاً أخضر اللون. وكان هو فى نحو الخمسين من عمره ، عريض الجبهة يلوح فى مفرِقه بعض الشّعر الأبيض ، وعلى الجملة كان مظهره دليلا على النعمة ومبعثاً على الثّقة والإجلال .

فلما وصل إلى دون كيشوت حيّاه بأدب وتابع سيره ، فناداه دون كيشوت قائلا :

— « أيها السيد الكريم ! إذا كنت تسلك هذا الطريق ولا يضيرك أن تسير على مهل فيسرني أن أحظى بشرف صحبتك » .

فتباطأ الفارس قليلاً ، وأخذ يمعن النظر فى دون كيشوت وهيئته الغريبة ، فقال له دون كيشوت باسماً :

— « لعلك تدهش من رؤيتى ، بيد أن دهشتك ستتبدد متى علمت أنى من فرسان المغامرات . لقد هجرت بلدى وأسرتى ومنزلى لأضرب فى البلاد مغيثاً الملهوف ، مدافعاً عن المظلوم ، حامياً شرف الجميلات ، وراعياً للأرامل والأطفال . وصفوة القول أنى دون كيشوت دى منشا الملقب بالفارس الكئيب » .

أطرق الفارس قليلاً عند سماعه هذا الكلام ثم قال :

— « سيدى ! إن صراحتى تأبى إلا أن أقول لك إن حديثك هذا لم يبدد دهشتى بل زادها اتساعاً ، فما كنت أظن أن فى أيامنا هذه فرساناً يجوبون البلاد ويقومون بمثل ما تقوم به من أعمال فاضلة » .

— « اسمح لى يا سيدى أن أسألك عن مهنتك فى الحياة » .

— « إن أدبك يا سيدى يجعلنى أجيبك عما تسأل . إنى من الأشراف وأقطن قرية قريبة من هنا ، ويشرفنى أن تقبل الدعوة لتناول الطعام على مائدتى . أنا "دون دياج دى ميراندا" وثروتى تكفينى لمطالب الحياة ، وإنى أعيش عيشة هادئة مع زوجتى وأولادى وبعض الأصدقاء ،

وأقضى أوقات فراغى فى الصيد والقنص ، وأحياناً فى القراءة ، وأوثر كتب التّاريخ ، ثم إنى لا أحفل بشؤون الناس ولا أضن بمالى على الفقراء وأفضّل أن يكون ذلك سرًّا لا يذاع ، فالغرور كثيراً ما شوّه الأعمال الطيّبة ، وإنى أجتهد أن أنشر السّلام بين جيرانى ، وألمّ شتات الأسر المتفرقة وأقضى فيها على العداوة والخصام . . . هكذا أحيا فى انتظار السّاعة التى أمثل فيها بين يدى الديّان العادل » .

وسكت الرجل قليلاً فأسرع سانشو وكان يسمعه فى صمت وتجلّة ، فترجّل عن حماره ، وجرى يقبّل رجل ذلك الفارس فقال له :

ـ « ماذا تفعل يا صديقى ؟ » فقال سانشو :

ـ « أفعل ما يجب أن يفعله كلُّ من عرفك ويعرفك ، فأنت يا سيّدى أوّل قدّيس رأيته فى حياتى يرتدى معطفاً أخضر » . فقال :

ـ « لستُ قدّيساً يا صاحبى ، فوداعتك واتّضاعك يجعلانك أفضل منى » .

فعاد سانشو إلى حماره فركبه وهو يمسح الدّموع التى انهمرت من عينيه لدى سماعه كلام الرّجل ، ثم انتفض على صوت دون كيشوت يناديه ويقول :

ـ « سانشو . سانشو . استعدّ فقد جاءتنا المغامرة الكبرى » .



١٩

أهاب دون كيشوت بتابعه لمّا وقعت عينه على عربة آتية من بعيد تخفق عليها أعلام الملك ، فتوهّم أنها مغامرة جسيمة تسعى إليه ، فاقترب سانشو منه وسمعه يقول له :

— « خذ حذرك وأعدّ سلاحك ، فالمغامرة المقبلة علينا تتطلّب منّا أن نكون فى أكمل عُدّة وسلاح » .

فأجال الرّجل صاحب المعطف الأخضر أنظاره فيما حوله فلم ير إلا عربة رفعت على جوانبها الرّايات ، فمال على دون كيشوت يفهمه شأنها فهزّ رأسه وقال :

ـ « إنى أعرف يا سيّدى ما أقول . فعدوّى عدوّان : ظاهر وخفىّ » .

ثم لبس خوذته وسدّد رمحه وصاح :

ـ « أقبل أيّها العدوّ اللدود فإنى منتظرك ، والله لأقهرنّك ولو كنت الشّيطان الرّجيم » .

فلم يزدد صاحب المعطف الأخضر إلا استغراباً ، وكانت العربة قد وصلت يسوقها رجلان فمشى دون كيشوت إليهما وقال :

ـ « إلى أين أنتما ذاهبان ؟ وما هذه العربة ؟ وما تحوى ؟ وما معنى هذه الرّايات ؟ » فقال أحدهما :

ـ « هذه عربتى يا سيدى وهى تحوى قفصين كبيرين فيهما أسدان من أسود إفريقيا بعث بهما حاكم "وهران" إلى جلالة الملك ، وهذه الرّايات المزدانة بشارة الملك حريّة أن تدلّك على أننا نحمل هديّة إلى جلالته » . فقال دون كيشوت :

ـ « هل الأسدان على شىء من القوّة والبأس ؟ » فقال الرجل :

ـ « أقوى ما وصل إلى إسبانيا من أسود . فالأسد فى هذا القفص واللبؤة فى القفص الآخر ، ولم يأكلا شيئاً فى هذا اليوم فهما جائعان فلا تؤخّرنا يا سيّدى » . فقال دون كيشوت باسماً :

ـ « سأريكم يا سادة ماذا أصنع بالأسود ، فافتح يا صديقى القفصين واتركنى وشأنى مع هذين الحيوانين ، فسوف أرى السّحرة الذين أرسلوهما

إلى مَن هو دون كيشوت دى منشا » .

فجرى سانشو إلى دون دياج والرُّعب يعقد لسانه ، ورجا منه أن يحول بين سيِّده والأسدين ، وإلا أصبحوا كلهم فريسة لهما ، فقال له دون دياج :

— « لا أعتقد أن سيِّدك هو من الجنون بحيث يتعرّض لأسدين هائلين » . فقال سانشو :

— « إنك لا تعرفه يا سيِّدى ... إنه جدير بأن يقاتل أهل الجحيم برمّتهم » .

فتوجّه دون دياج إلى دون كيشوت وكان يلحّ على سائق العربة فى فتح القفصين فقال له :

— « سيّدى الفارس ! ما أرانى فى حاجة إلى أن أذكر لك أن البطولة الحقيقية لا تتنافى وعوامل الفطنة والحذر ، فأشجع الفرسان لا يتعرض لما فوق قوّة البشر . وهذان الأسدان لم يجتازا البحر ليقاتلاك ، ولا هما أساءا إليك فلا تعترض سبيلهما فإنما هما هديّة للملك » . فقال دون كيشوت :

— « إنى أعنى ما أقول وأدرى ما أفعل ، وسأريك أجاء هذان الأسدان من إفريقيا لقتالى أم لا . وأنت أيها السائق الأرعن لئن لم تفتح القفصين فى الحال لأسمّرنّك بهذه الرّمح فوق عربتك » .

أدرك السّائق من لهجة دون كيشوت أنه جادّ فيما يقول ، فرجا منه أن يفكّ رباط البغلين اللذين يجرّان العربة ويطلقهما فهما كل ثروته ، فأذن له دون كيشوت فى ذلك فنزل السّائق وحلّ أربطة البغلين وأطلقهما فى العرَاء ، ثم التفت إلى دون دياج وسانشو وقال بصوتٍ عال :

— « إنكما شاهدان يا سيدىّ أنى أجبرت على إطلاق سَراح الأسدين فلست مسؤولاً عن النّكبات التى سيحدثانها فالمسئول هو هذا السيّد الذى يكرهنى على إجابة طلبه ، فاهربا يا سيدىَّ إلى مكان أمين قبل أن أفتح القفصين فلا خطر علىّ أنا من الأسدين لأنهما يعرفاننى » .

وحاول دون دياج مرّة أخيرة أن يقنع دون كيشوت بالعدول عن مطلبه فلم يُفلح ، وجاءه سانشو والعبرات تسيل على خدّيه يتوسّل إليه أن يرجع عن هذه المغامرة ويقول له إنه لمح من خلال القضبان كفّ الأسد فإذا هى كبيرة ضخمة مما يدلّ على أن الأسد أضخم من الجبل ، فقاطعه دون كيشوت قائلاً :

— « لقد دفعك الخوف إلى أن ترى الأسد فى ضخامة الجبل فارجع يا صديقى سانشو المسكين ولا تثريب عليك إذا آثرت الأمن والعافية ، ولكن إذا هلكت أنا فى هذا القتال فلا تنسَ الرّسالة إلى أميرة توبوزو . هيا اذهب ودعنى وشأنى » .

ورأى ، دون دياج أن لا فائدة من إرجاع دون كيشوت عن عزمه فأدار

جواده وتوغّل به فى الغابات ، ولحق به سانشو على حماره ، وحذا حذوهما أحد السّائقين فركب بغلاً وجرّ الآخر برَسَنه ، ولما رآهم السّائق الأوّل قد ابتعدوا حاول محاولة أخيرة فى أن يثنى دون كيشوت عن قراره فذهب توسّله ورجاؤه أدراج الرّياح . وبينما كان الرّجل يهمّ بفتح القفصين فكرّ دون كيشوت فى أن حصانه قد يجفل من رؤية الأسدين فقرّر أن يقاتلهما راجلاً ، فقفز إلى الأرض ورمى برمحه ، وامتشق حُسامه ، واستودع الله نفسه وحبيبته ، وجاء بقدم ثابتة يستقبل الأسد الرّئبال .

ونزل السائق فى آخر الأمر عند رغبة دون كيشوت ، ففتح باب القفص فبدا الأسد فى جسمه الضّخم ، وعُفْرته الهائلة ، وعينيه المتّقدتين ، فأجال دون كيشوت نظرة فى الأسد غير هيّاب ولا وَجِل ، فتمطى الأسد ثم فتح فمه كأنه هوّة عميقة ، ومدّ لساناً طوله نصف متر تقريباً ، وأخذ يلحس به وجهه وحاجبيه ومخالبه حتى إذا انتهى أخرج رأسه من باب القفص وأدار يميناً وشمالاً عينين حمراوين كأنهما قطعتا جمر ملتهب .

اتّبع فارسنا حركات الأسد وسكناته ، وكان يتّقد شوقاً إلى بدء المعركة ، غير أن الأسد الكريم لم يكترث للفارس والفروسية فأعاد رأسه إلى داخل القفص واستدار ثم جثم فى أرض القفص مولياً ظهره لدون كيشوت ، فطلب هذا من السائق أن يثير الأسد ويخزه ليحمله على الوثوب إلى خارج القفص فقال الرجل :

ـ « أستحلفك بالله يا سيّدى أن تعدّى عن هذا المطلب ، فسوف يمزّقنى الأسد إرْباً إرْباً . . . ولكنّك يا سيّدي وصلت إلى أبعد حدود الشجاعة ، فباب القفص مفتوح فما على الأسد إلا أن يخرج إذا أراد الخروج ، ويلوح لى أن المحارب الباسل عند ما يتحدّى عدوّه فلا يجيب عن التحدّى يجب أن يُعدّ فائزاً منتصراً ، والعدوّ مقهوراً مغلوباً . ولقد تحدّيت الأسد فلم يردّ على التحدّى فأنت إذن المنتصر الظافر » . فقال دون كيشوت :

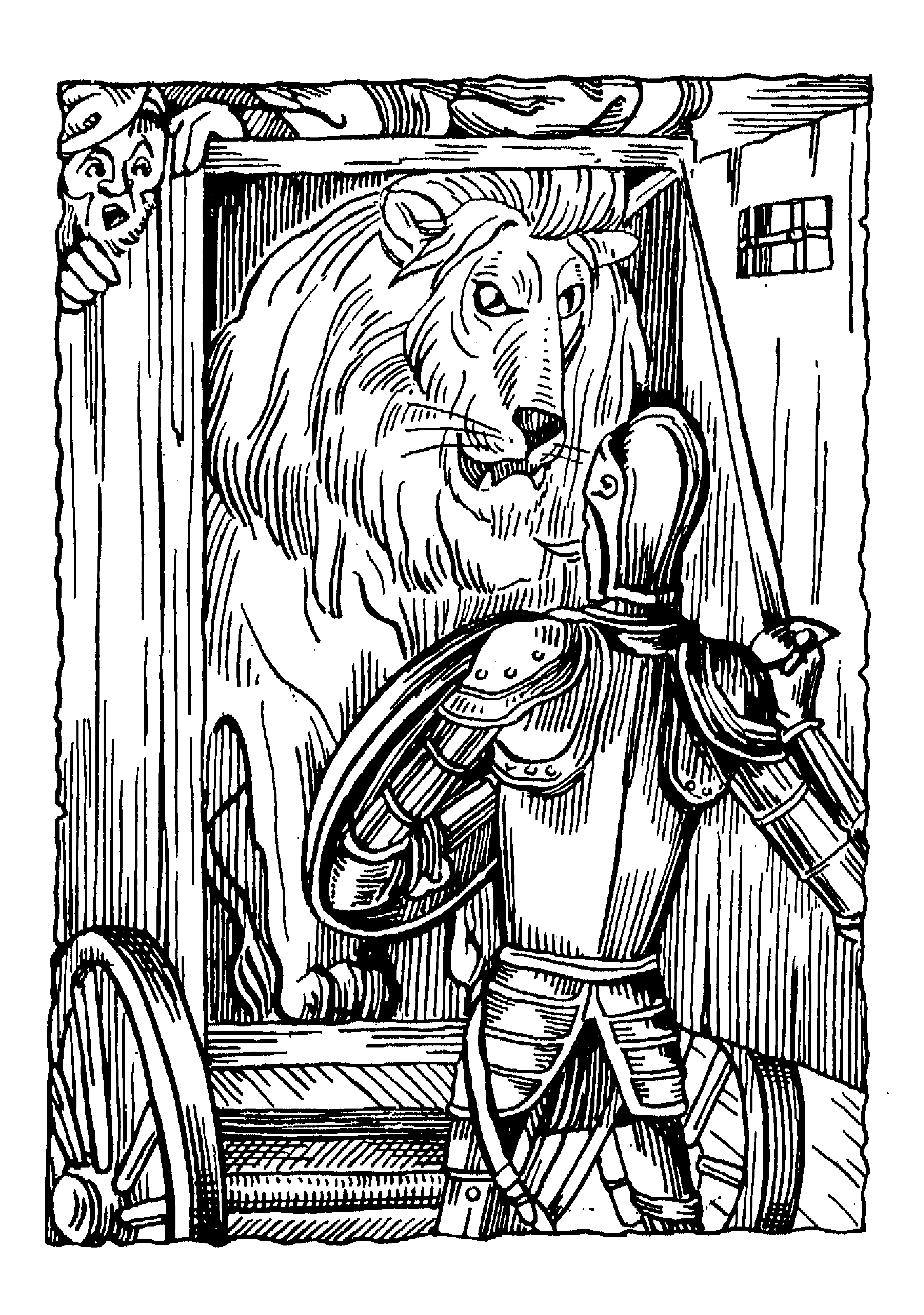
ـ « إنك لعلى حقّ يا صديقى ، فأقفل باب القفص وأعطنى شهادة مستوفية الشروط بما رأيت منى ، واذكر فيها أنى تحدّيت الأسد مرتين فلم يقبل التحدّى . عاشت الفروسية وماتت السَّحَرة » .

وبأسرع من تردّد الطّرْف أقفل السائق باب القفص ، فأخذ دون كيشوت منديله وعلقه على سنان رمحه ، وأشار إلى دون دياج وسانشو طالباً منهما أن يعودا إليه فالتفتا إليه فقال سانشو :

ـ « ليختطفنى الموت إن كان سيّدى لم يقهر الأسدين » .

فعادا إليه ومعهما السّائق الثانى فقال دون كيشوت للسائقين :

ـ « اقطرا بغليكما إلى العربة وتابعا رحلتكما . وأنت يا سانشو أعطِ الرّجلين قطعتين من الذّهب جزاء لهما على الوقت الذى أضاعاه معنا » . فقال سانشو :



— « عن طيب خاطر يا سيدى . ولكن ماذا جرى للأسدين ؟ هل ماتا ؟ هل هما على قيد الحياة ؟ »

فشرع السائق الأوّل يصف للقوم شجاعة دون كيشوت ، ويغمره بآيات الثّناء والإطراء ، ويخبرهم أنه فتح باب القفص وتركه مفتوحاً مدّة طويلة ولكن الأسد خاف أن يخرج إلى لقاء الفارس الشّجاع فاضطرّ إلى إقفال القفص .

ونقد سانشو السّائقين قطعتى الذّهب فانحنيا على يد دون كيشوت، يقبّلانها قائلين إنهما سيرفعان إلى الملك ما شهدا من مجالى شجاعته وبطولته، فقال دون كيشوت :

— « إذا سألكما الملك عن اسم ذلك البطل المغوار فقولا إنه " فارس الأسود " فإنى سأتسمى منذ اليوم بهذا الاسم بدلاً من اسم " الفارس الكئيب " » .

ثم استأذن السائقان فى الانصراف فتابعا مسيرهما ، واستأنف دون كيشوت سيره يصحبه دون دياج وسانشو :

وكان دون دياج تقيمه الأفكار المتضاربة وتقعده ، ولا يدرى أدون كيشوت هذا مجنون من المجانين أم عاقل من العقلاء ، فلمح دون كيشوت عليه مسحة التّفكير فقال له :

— « يخيّل إلىّ يا سيّد دون دياج أنك تفكّر فىّ ، وأنك تعدّنى فى

المجانين ، ولكن حكِّمْ عقلك تجدنى أعقل العقلاء » . فقال دون دياج :

— « معاذ الله يا سيّدى . . . على أننى أرجو أن تحثّ السير قليلا لنصل إلى منزلى فتستريح فيه بضعة أيام من جهدك وعنائك » .

فشكره دون كيشوت ، وحثّت القافلة الخطى فوصلت فى السّاعة الثانية بعد الظهر إلى منزل دون دياج الذى أطلق عليه دون كيشوت اسم « فارس المعطف الأخضر » .





٢٠

قضى دون كيشوت أربعة أيام فى ضيافة دون دياج نعم فيها سانشو بكل ما لذّ وطاب من المأكل والمشرب . وفى اليوم الخامس ودّع دون كيشوت مضيفه معتذراً بأن الواجب يدعوه إلى استئناف البحث عن المغامرات ، وشكر له ما لقيه عنده من جميل التّرحاب وكرم الحفاوة ، وانطلق هو وسانشو إلى غايات المجد والفخار ، ولم ينسَ سانشو أن يملأ خرجه بأطايب الطعام .

سلك المسافران الطّريق العام ، ثم عرّجا منه على دروب وشعاب فوصلا إلى مرجٍ واسع رأى فيه دون كيشوت جماعة من الصّيّادين بينهم



سيدة فتيّة نبيلة الملامح ، لابسة ملابس الفرسان ، وراكبة على جواد أبيض ، وممسكة بيدها صقراً . وكان يلوح عليها أنها سيّدة الجماعة ، فقال دون كيشوت لسانشو :

– « اذهب إلى هذه السيدة الجميلة الواقف على يدها الطائر ، وقل لها إن فارس الأسُود يقدّم لها فروض الإجلال ، ويطلب منها السماح له بالمثول بين يديها ليعرض عليها خدماته » .

فأسرع سانشو يؤدّى الرسالة ، فمر بجماعة الصيّادين ووصل إلى السيدة فترجّل عن حماره وركع أمامها وقال :

– « سيدتى الجميلة النّبيلة ! أنا سانشو بانسا تابع فارس الأسُود الواقف على مرمى من نظرك . إن سيّدى ، وكان يسمى الفارس الكئيب ، أرسانى أقول لك إنه يسعده ويشرّفه أن يقدّم لك إجلاله ، ويضع نفسه فى خدمتك وخدمة طائرك » . فقالت السيدة :

– « أيها التابع الظّريف ! إنك لنعم الرّسول . انهض فتابعُ الفارس الكئيب صاحب المجد الأثيل والأعمال الباهرة يجب أن لا يتكلم وهو راكع ، فعد إلى سيّدك وقل له إنى وزوجى الدوق يسعدنا أن نستقبله فى منزلنا القريب من هنا » .

فنهض سانشو ومدّت إليه السيّدة يدها مصافحة وسألته قائلة :

– « أليس سيّدك هو دون كيشوت دى منشا المشهور حبيب أميرة

توبوزو وبطل القصة المطبوعة التى يتداولها الناس ؟ » فقال سانشو :

— « هو بعينه يا سيدتى ، والتابع صاحب الشأن الجليل فى القصة هو أنا ، إلا إذا كان المؤرخ الأحمق قد شوه مهمتى وقلبنى إلى مرضع » .

فقالت السيدة :

— « مرحى . مرحى . يسرنى أن أستقبلك أنت وسيدك » .

فانحنى سانشو شاكراً وعاد ينقل إلى سيده جواب الدوقة . وكانت هذه قد نادت زوجها وأخبرته برسالة دون كيشوت ، ولما كانا كلاهما قد قرآ الجزء الأول من قصة دون كيشوت فقد سرا كل السرور أن يعرفاه ويستقبلاه ، وقررا أن ينزلا عند آرائه ورغباته ، ويعاملاه معاملة الفرسان التائهين .

أراد دون كيشوت عند وصوله إلى الدوقة أن يسرع فى الترجل ، وكان السرج غير محكم الربط فلما وقف دون كيشوت على الركاب وحاول النزول ، استدار السرج إلى بطن الحصان فسقط دون كيشوت ممدداً على الأرض . فأمر الدوق رجاله أن ينهضوا دون كيشوت فأنهضوه ، وساعدهم سانشو. وأقبل بطلنا إلى السيدة وهو يعرج وهم بالركوع أمامها فمنعه الدوق وقبله وقال :

— « يا سيدى الفارس الكئيب ! يؤسفنى أن تكون أول خطوة تخطوها فى أرضى عثرة تتعثرها ، فلى عظيم الأمل أن لا يحول هذا الحادث دون

إقامتك بين محبّيك والمعجبين بك » . فقال دون كيشوت :

ـ « أيّها الأمير الجليل ! إن إهمال تابعى لن يحرمنى شرف المثول بين يدى سيّدتى الدّوقة وبين يديك » . فقال الدّوق :

ـ « هل يسمح سيدى الفارس الكئيب أن نتوجّه إلى القصر ويشرّفنا بالزّيارة » ؟ فأقحم سانشو نفسه فى الحديث وقال :

ـ « حُبًّا وكرامة ! ولكن لا تنسَ ياسيّدى الدّوق أنّ اسم سيدى الآن فارس الأسُود » .

وخبّت الجياد وفيهم « السّكّيت » وحمار سانشو إلى قصر الدّوق .





٢١

سبق الدّوق الرّكب إلى القصر ليصدر أوامره فى استقبال ضيفه العظيم ، فلمّا وصل دون كيشوت إلى القصر ، خفّ إلى استقباله ومساعدته على النّزول من جواده فارسان فى ثياب ثمينة مزركشة ، وأربع أوانس قدّمن إليه معطفاً من المخمل الأحمر وضعنه على كتفيه . وامتلأت أروقة القصر بالناس أقبلوا يشاهدون البطل ويحيّونه بالورد والرّيحان صائحين :

— « أهلاً وسهلاً ببطل الأبطال وفارس الفرسان » .

وتقدّم دون كيشوت متأبّطاً ذراع الدّوقة ومسروراً من أنه استُقبل مرّة فى حياته كما يُستقبَل الفرسان التّائهون الذين قرأ عنهم فى الكتب.

وصل الموكب إلى الغرفة التى خُصّصت بدون كيشوت ، فدعىَ إلى دخولها والاستراحة فيها قليلا وتغيير ملابسه ، وكانت غرفة فسيحة جميلة ، مزدانة بالأستار المذهّبة ، فرأى فيها ستّ فتيات جميلات ، أقبلن ينزعن عنه سلاحه ويساعدنه على خلع ملابس القتال واستبدال أخرى بها ، فاعتذر إليهن ّ ورافقهن ّ إلى الباب بأدب وتجلـّة ، ونادى تابعه سانشو فهرول إليه وساعده على تبديل ملابسه ، وخرج فلقى الفتيات عند الباب يحملن طَسْتاً من الذهب ليغسل فيه يديه ، ثم جاءه اثنا عشر خادماً يتقدمهم رئيسهم فانحنوا بين يديه ودعوه إلى تناول الطعام .

وبعد المأدبة ، أحاطت به أربع أوانس تحمل الأولى طَسْتاً من الذّهب ، وتحمل الثانية إبريق ماء من الفضّة ، وعلى ذراع الثّالثة منشفة فاخرة ، وفى يد الرّابعة قطعة من الصابون المعطّر . فجاءت الأولى ووضعت الطّسْت تحت ذقن دون كيشوت برشاقة وكياسة ، فلم يمانع دون كيشوت ظنّاً منه أنها عادة البلد ، بل مدّ عنقه الطويل فصبّت الثانية الماء فى الطّسْت ، وجاءت حاملة الصّابون ، وأخذت تدعك بالصّابون لحية البطل فى حين كانت زميلتها تصبّ لها الماء قليلاً قليلاً حتى ملأت الرّغوة وجه دون كيشوت وأنفه وعينيه وهو صامت صاغر . ولمح الدّوق والدّوقة هذه الحفاوة ، ولم يكونا قد أمرا بها ، فلم يدريا أيضحكان منها أم يمنعانها . وفرغ الماء فجأة فذهبت حاملة الإبريق لتملأه ، وبقى



صاحبنا ممدود العنق فوق الطّسْت ، مملوء الوجه برغوة الصّابون ، مقفلاً جفنيه حتى لا تتسرّب الرّغوة إلى عينيه . وكان النّاس من حوله ممسكين عن الضحك إجلالاً للموقف . وأخيراً وصلت حاملة الماء ، واستؤنف العمل فى لحية دون كيشوت فغسلت ونشّفت ثم ركعت الفتيات نصف ركعة وانصرفن . وشاء الدّوق أن يبدّد الشّكوك من ذهن دون كيشوت ، فدعا الفتيات وطلب إليهن أن يقمن بغسل لحيته كما فعلن مع الضيف ، فأجبنه إلى ما طلب وتمتم سانشو بين أسنانه :

ــ « ترى أليس من عادات القوم أن تغسل الفتيات لِحَى التابعين للفرسان ؟ إنى أقبل بذلك راضياً ولو حلقن لِحْيتى » .

فسمعت الدّوقة سانشو يتمتم بينه وبين نفسه فقالت له :

ــ « بماذا تتمتم يا سانشو ؟ » فقال :

ــ « كنت أعتقد حتى اليوم يا سيّدى أن عادات الأمراء تقضى بأن يغسل الضُّيوف أيديهم بعد الطّعام ، وما كنت أدرى أن فى تلك العادات غسل لِحَى الضُّيوف بالصابون ، وكيفما كان الأمر فإنها لعادة جميلة حميدة تعجبنى كلّ الإعجاب » . فقالت الدّوقة ضاحكة :

ــ « اطلب تجد هذه الفتيات أقبلن يغسلن لِحْيتك » .

وكان رئيس الخدم قد أقبل يدعو سانشو إلى تناول الطّعام معه فاستأذن من الدوقة وذهب يُسْكت عصافير بطنه .



٢٢

استدعت الدوقة سانشو إلى غرفتها بعد ما فرغ من تناول الطّعام ، وأمرته بالجلوس إلى جانبها فرفض أولاً هذا الشّرف الأثيل ، ولكنه أطاع مضطرًّا فجلس وحفّت به فى الحال الفتيات من حاشية الدّوقة ، فقالت هذه له :

— « الآن ونحن بعيدون عن أعين الرُّقباء وأسماعهم ، أريد أن أستوضحك بعض أشياء لم أفهمها عند قراءتى قصّة دون كيشوت العظيم ، فمن الثّابت المؤكّد مثلاً ، على ما تقوله القصة ، أنك لم ترقطُّ أميرة توبوزو الحسناء ولا رآها سيّدك أفيعقل هذا ؟ »

نهض سانشو عند سماعه هذا الكلام ، واستوثق من أن الباب مقفل موصد ، وبحث تحت المناضد والمقاعد ووراء قطع الأثاث ، ثم عاد إلى مكانه وقال :

— « أردت أن أتأكد من أنه لا يسمعنا أحد قبل أن أفضى إليك يا سيدتى بما عندى من أسرار . وأول تلك الأسرار ، وهذا ما ستستغربين منه جداً ، هو أننى منذ مدة طويلة أرى فى سيدى دون كيشوت رجلاً به مس من الجنون . قد يقول فى بعض الأحيان كلاماً يفيض رزانة وحكمة يعجب بهما السامعون ، غير أنه يعود بعد ذلك إلى خرافاته وأوهامه » .

فقالت الدوقة :

— « إذا صح ما تقول فهناك مسألة تضايقنى ولا أجد لها حلاً . فإن كان دون كيشوت مجنوناً بشهادة تابعه ، فلماذا يصر تابعه على مرافقته والاشتراك فى أعماله الجنونية ؟ فلا بد أن يكون تابعه هذا مصاباً بالجنون مثله ، فضميرى إذن لا يسمح لى أن ألح على زوجى فى إعطاء سانشو جزيرة من الجزر ، فكيف يستطيع رجل لا يحكم نفسه أن يحكم الآخرين ؟»

فقال سانشو :

— « إن تفكيرك يا سيدتى رزين صائب ، وأنا أول من يوافقك على أنه لو كان لى ذرة من العقل لكنت تركت سيدى منذ زمن طويل ، ولكننى أحبه فنحن من قرية واحدة ، وكثيراً ما ساعدنى فى الحياة فهو

رجل طيب القلب وأنا كذلك ، ولن يفرقنا إلا الموت . أمّا مسألة الجزيرة التى تتحدّثين عنها فإننى أعدل عنها إذا كان ذلك يرضيك ، ولعلّى أكون أسعد حالا ، فلست بناس حكاية النملة التى حكاها لنا قسّيس القرية ، فقد أرادت النملة يوماً أن يكون لها أجنحة ثم ندمت على ذلك ، فسانشو التابع أسهل عليه دخول الجنّة من سانشو الحاكم ، ولا إخالك يا سيّدتى تجهلين الأمثال القائلة : إن الخبز لذيذ فى كل مكان ، وإن القطط فى الليل كلها سود ، وإن الأغنياء لا يتغدّون مرّتين ، وإن عصافير الحقل يرعاها الله ، وإن الأمير والحقير لا تزيد حفرة الواحد منهما فى الأرض عن الآخر فهما يختلفان وقوفاً ويستويان رقاداً . . . فاحتفظى يا سيّدتى بجزيرتك فحسبى أن تشمليني برضاك فذاك خير وأبقى » .

ثم أذنت الدّوقة لسانشو فى الانصراف فذهب ينام ملء جفنيه .





٢٣

نظّمت الدّوقة حفلة صيد عظيمة ، وأرسلت إلى دون كيشوت ثوباً جميلاً من ثياب الصَّيد فرفض أن يلبسه لأنه كان قد نذر أن لا يفارق أبداً سلاحه ، أمَّا سانشو فقد أعجب بالثوب الأخضر الذى أهدى إليه فلبسه وصمـَّم أن يبيعه فى أوّل فرصة .

وفى اليوم المحدّد خرج دون كيشوت مدجَّجاً بالسلاح ومعه سانشو فى ثوبه الأخضر ، ووقفا ينتظران الدّوقة فظهرت بعد قليل فى ملابس الفرسان راكبة على جواد جميل وفى يدها رمح طويلة ، وجىء إلى سانشو بجواد عربىّ أصيل فأبى أن يركب إلا حماره . وطار القوم كلهم إلى غابة

كثيفة كانت بين جبلين ، فقرعت الطّبول ووزّعت المراكز وبدأت حفلة الصيد .

نزلت الدّوقة عن جوادها المطهّم ، وسارعت إلى ممرّ اعتادت الوعول أن تسلكه ، وشرعت رمحها ووقفت فى وقفة المترقب المترصّد ، وقام إلى جانبيها كلٌّ من دون كيشوت والدّوق . أما سانشو فلمّا عرف أنهم سيصيدون الوعول بقى راكباً على حماره ، ووقف به وراء سيّده بعد أن وثق من وجود درب يستطيع منه الفرار إذا اقتضى الأمر .

وما هى إلا لحظات حتى ظهر على البعد قطيع من الوعول يتقدّمه وعل ضخم ترك رفقاءه وأقبل ينطح الهواء بقرنيه ويقذف الشّرر من عينيه . فلمّا صار على مقربة من الدوقة ، هجم دون كيشوت عليه والسيف مجرّد فى يده ، وفعل الدوق مثل فعله ، وهمّت الدوقة أن تهجم هى أيضاً برمحها فرجاها الدوق أن لا تعرّض نفسها للأذى ففيه وفى دون كيشوت الكفاية .

رأى سانشو الوعل يقترب فقفز عن حماره وجرى إلى شجرة عالية وحاول أن يصعد فى قمّتها ، فلما صار فى وسطها انكسر الغصن الواقف عليه فسقط منه وعلق ثوبه فى أثناء السّقوط بغصن آخر فبقى مرتجحاً فى الفضاء ، رأسه إلى تحت ورجلاه إلى فوق ، فأيقن بالهلاك لأنه كان فى متناول الوعل إذا مرّ به ، فأخذ يصرخ ويستنجد .

وكان الوعل إذ ذاك يلفظ أنفاسه تحت طعنات الصيّادين ، والتفت دون كيشوت فرأى تابعه سانشو على تلك الحال ، وإلى جواره حماره الأمين ، فجرى ينقذه ، فهبط سانشو إلى الأرض وهو ينوح ويبكى على ثوبه الأخضر الجديد الذى مزّقته الغصون .

وضع الصيّادون الوعل على بغلٍ من البغال ، وغطّوه بالغصون والأوراق ، وساروا به مهلّلين مبتهجين إلى خيام نصبت فى وسط الغابة ، فوجدوا هنالك الموائد ممدودة وعليها أفخر الأطعمة وأشهاها .





٢٤

فى صبيحة اليوم التالى انتظر دون كيشوت طلوع الفجر ، فنزل من غرفته إلى لقاء الدّوقة ، وانقضى النهار فى نزهات جميلة وأحاديث ممتعة . فلمّا كان المساء صعد دون كيشوت فى غرفته فوجد على المنضدة عوداً ، فشدّ أوتاره وخرج به إلى الشّرفة ، وأخذ يعزف عليه ويغنى مقطوعات من الغناء سمعتها الدّوقة وحاشيتها وهى فى حديقة القصر .

وسُرعان ما انقلب الغناء إلى صُراخ عجيب ، فقد رمى بعضهم من نافذة فوق شرفة دون كيشوت كيساً مملوءاً بقططة رُبطت الأجراس فى أذنابها فسُمع لسقوطها ورنين أجراسها دوىٌّ شديد، فاستاء الدّوق والدّوقة

من هذا المُزاح الذى لم يكونا عـلما به . وفزع دون كيشوت فى أوّل الأمر ولم يشكّ إلا أن طائفة من الأبالسة جاءت تحاربه ، فاستعاد شجاعته ، وجرّد حسامه ، وجرى وراء القططة فى كل زاوية من زوايا الغرفة . واصطدمت القِطاط بالشّموع فقلبتها وانطفأت ، وخيم الظّلام على الغرفة ودون كيشوت يصيح ويقول وهو يضرب بسيفه الهواء :

— « اخرجوا من هنا أيها السّحرة الأرذال فدون كيشوت يحتقركم ويتحدّاكم » .

وكانت القطاط هى أيضاً مفزوعة خائفة ، تقفز فوق الأثاث وتملأ الجو مُواءً فأصاب دون كيشوت واحداً منها فوثب من شدّة الألم إلى وجه ضاربه ، وتعلق بأنفه ، وأنشب فيه مخالبه ، فدوّت الغرفة بصراخ دون كيشوت متوجعاً متألمًا .

هُرع الدّوق والدّوقة وحاشيتهما إلى ساحة المعركة يحملون المشاعل ، فوجدوا القطّ عالقاً بوجه دون كيشوت ، وهذا يتخبّط فى مصارعته وإنزاله عن مكانه ، فخفّوا إلى نجدته فصاح فى القادمين :

— « حذار ! لا تقتربوا منى ! فأنا وحدى سأؤدّب هذا الساحر ولو تقمّص فى شكل قِطّ » .

وكأنّما القطاط قد ارتعبت من وجود المشاعل فولّت هاربة وفى طليعتها القطّ المتشبّث بوجه دون كيشوت . وعزّ على الدّوقة أن يسيل

دم ضيفها بسبب هذا المُزاح الثّقيل، فطلبت الضّمادات وجلست تضمّد له خدوشه ، ثم تركوه جميعاً ليأخذ قسطه من النّوم والراحة .

وقرّ قرار دون كيشوت أن يستأنف رحيله فى طلب المغامرات ، فإن المجد سيحاسبه حساباً عسيراً على حياة الكسل والبطالة ، فعزم على الرّحيل فى الصّباح الباكر .

وعند الفجر كان دون كيشوت فى ساحة القصر متدجّجاً بسلاحه الكامل ، وممتطياً متن حصانه ، وإلى جانبه سانشو على حماره تبرق أسارير وجهه فرحاً وغبطة ، وسبب ذلك أن مدير القصر جاء يسلمه سرّاً بأمر الدوقة كيساً فيه مئتا قطعة ذهبيّة . وكان سكّان القصر كلهم فى الشّرفات وكان الدّوق والدّوقة ومن حولها الوصائف ، قد نزلوا يصافحون دون كيشوت ويودّعونه أجمل وداع .

ضرب دون كيشوت فى البرارى والحقول يستنشق نسيم الحريّة ملء رئتيه ، فالتفت إلى سانشو وقال :

— « يا عزيزى سانشو ! ليس فى العالم أجمع إلا شىء واحد جدير بأن يبذل فيه الرجال جهدهم وعناءهم وحبهم . ذلك الشىء هو الحريّة . فكنوز الأرض والبحار ، ومباهج الثروة والكسل لا تعدل الحرية التى يفديها كل عاقل بأبهظ التّضحيات . لقد شهدت يا سانشو كيف كنت موضع الإجلال والحفاوة فى هذا القصر الذى تركناه ، وكيف

كانت المآدب الفاخرة والأطعمة والأشربة اللذيذة تتوالى علىّ ، ولكن ما من شيء قد أرهف حسّي وأثار ذوقي ورغباتي ، وبعث فيّ أمانيّ وآمالي . ذلك لأني لم أكن حرًّا فقد كنت أشعر بأني تابع للذي يقدّم لي الأطايب واللذائذ، وكان عرفاني للجميل قيداً لعقلي وإن لم يكن حِمْلاً على نفسي ، فما أسعد الرّجل العامل الذي يأكل خبزه في طمأنينة وسلام، ولا يحتاج أن يشكر إلا السماء » . فقال سانشو :

— « سيّدي ! إن هذا الذي تقوله جميل جميل ، ولكن اسمح لي أن أنهي إليك أن مدير القصر سلّمني من قِبَل الدّوقة كيساً فيه مثتا قطعة من الذّهب ، أحملها هنا تحت حزامي ، وسوف تساعدنا على الحياة مدّة من الزّمن » .

ولقد جرّ الحديث دون كيشوت وتابعه إلى التوغّل في غابة بعيدة عن الطّريق العام ، فشعر بطلنا أنه أخذ بحِبالة من الحرير الأخضر كانت منصوبة تحت غصون الشّجر فقال :

— « سانشو ! إن لم يخطئني الحدْس والتّخمين فإنني إزاء مغامرة فريدة لم يسبق لها مثيل، فأعدائي السّحرة تخيّلوا أن يقبضوا علىّ بهذه الحِبالة ولكن هيهات ! »

امتشق دون كيشوت سيفه ليمزّق به الحبالة فوجد أمامه فتاتين في ملابس الرّعاة، غير أن مظهرهما وثيابهما الفاخرة دلاّه على أنهما ليستا من

طبقة الفلاّحات ، فقد كانتا فى الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمرهما ، يتدلىّ شعرهما الأشقر فى جدائل على كتفيهما ، ويلتفّ ورق الغار مضفوراً أكاليل على رأسيهما فقالت إحداهما :

— « على رسْلك يا سيّدى الفارس ، لا تمزّق حبالة لم تنصب لتكون شركاً لك . إن لهْوَنا لا يضير أحداً . فى هذه الخيام المضروبة فى قلب الغابة تجتمع فى كل عام أسَرُ القرية لقضاء بضعة أيام فى لهو ومتعة ، فيرتدى الشّيوخ والشبان والأطفال ثياب الرّعاة ويرسمون بذلك صورة جميلة لحياة الرّيف . ولقد تخيّلنا من بين ملاهينا أن ننصب هذه الحبالة ونصطاد بها العصافير ، فتفضّل يا سيّدى وانزل ضيفاً علينا تملأنا سروراً وحبوراً » . فقال البطل :

— « إن حديثكما يا فتاتىَّ الجميلتين يملأ صدرى غبطة وانشراحاً ، فلن أمزّق أداة لهوكما ، بل لو أن الأرض كلها مغطّاة بحبالة مثلها لسعيت أبحث عن عالم جديد أخترق فيه لنفسى طريقاً . قد يبدو لكما حديثى مشوباً بالغلوّ والإغراق ، ولكنكما ستريان فيه حديثاً طبيعيًّا إذا علمتما أن محدّثكما هو دون كيشوت دى منشا » . فقالت الأخرى :

— « آه ! ما أسعدنا ! إن محدّثنا هو مثال البسالة والكياسة والحبّ الوفىّ ، فإنى أحفظ عن ظهر القلب قصّته ، وإنى أراهن أن الرجل الذى وراءه هو سانشو بانسا الطيّب القلب الأمين الظريف » . فقال سانشو :

— « هو ما تقولان . . . فأنا أنا وهذا سيدى » .

و وفد فى هذه الأثناء عدد من الرّعاة علموا من الفتاتين أن الرجل هو دون كيشوت الذى قرأوا عن أعماله المجيدة ، فدعوه كلهم إلى تناول الطّعام معهم ، فقبل الدعوة وكان بعد قليل محاطاً بجمهور من النّاس بين راعٍ وراعية ، فغمروه بالترحاب والتّكريم .

ولما نهضوا عن المائدة التفت إلى القوم وقال :

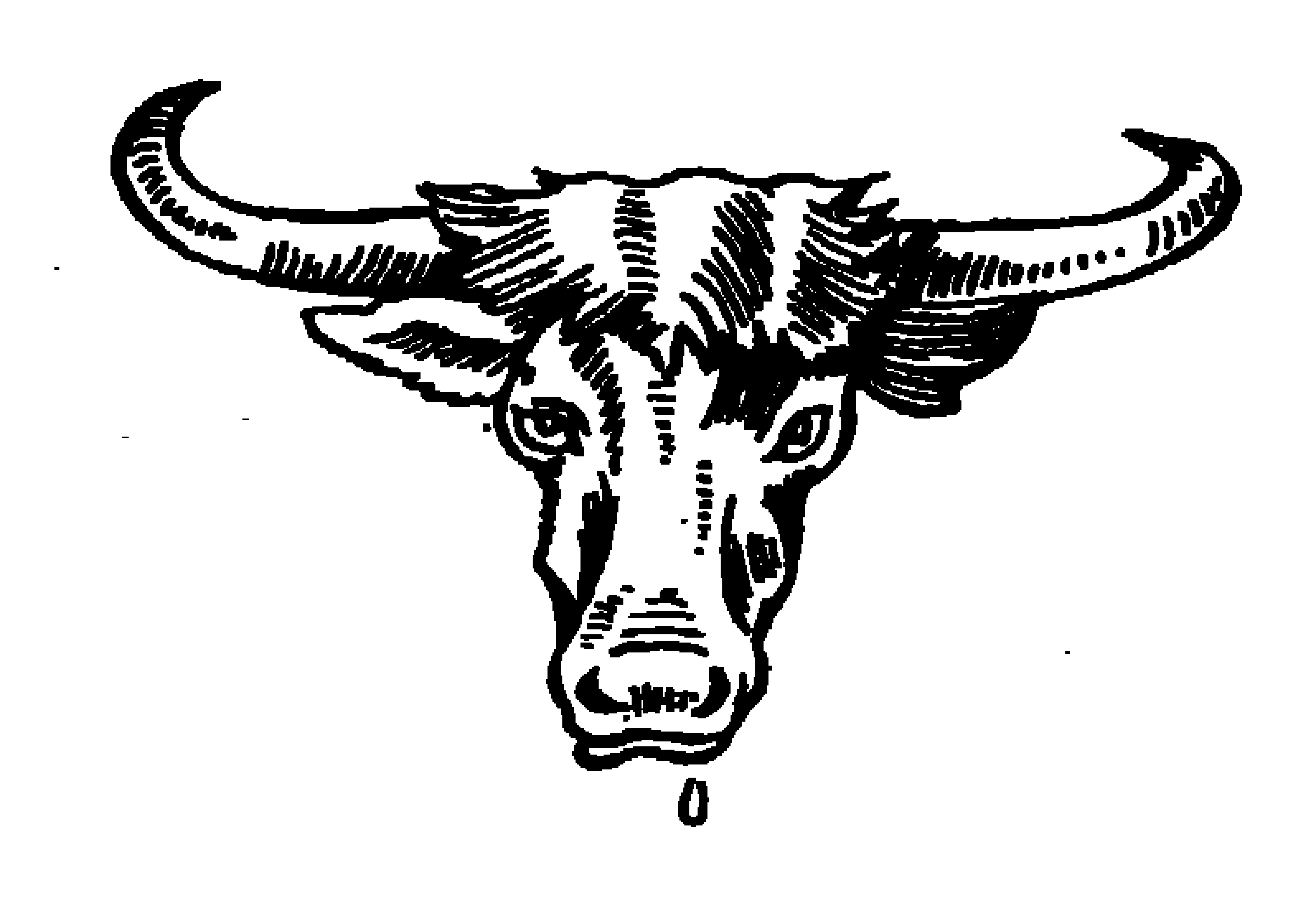
— « اسمحوا لى أن أقدّم لكم الشّكر على طريقتى ، أى على طريقة الفرسان التّائهين ، فسوف أركب حصانى وأقف فى وسط الطّريق العام ، وأتحدّى كلّ قادم مدّة نهارين كاملين ، بأنه ليس فى العالم أجمع أجمل ولا أكيس من هؤلاء الرّاعيات إلا الأميرة توبوزو » .

وقبل أن ينتظر الجواب قفز إلى حصانه وتبعه سانشو على حماره ، وسار وراءهما الرّعاة والرّاعيات ليروا خاتمة هذا التحدّى ، فتوسّط دون كيشوت الطّريق ، وصاح بأعلى صوته معلناً صيغة التحدى ، فلم يجاوبه أحد لأن الطريق كان خلواً من المارّة . وظهر فجأة فى الأفق غبار تكشّف عن قطيع من الثّيران يقوده رجال متسلحون بالعصىّ الغليظة ، فهرب كل من كان حول دون كيشوت ، وبقى مسمّراً على سرج حصانه ، واقترب القطيع وصاح أحد رجاله :

— « أخلِ الطريق وإلا مزّقتك الثيران شِلْواً شِلْواً » . فقال دون كيشوت :

— زِه . زِه . الثيران لا تخيف دون كيشوت ، فإن ذراعى ستقفها ما لم تعترفوا بأن راعيات هذا الرّوض . . . »

ولم يستطع إتمام خطابه فقد كانت الثّيران قد وصلت إليه وطرحته أرضاً هو وحصانه وسانشو وحماره، واستمرّت فى مشيها . فلما نهض فارسنا وتابعه كانت الثيران قد ابتعدت فرماها دون كيشوت بالخيانة والجبن والغدر . ومشى سانشو إلى الحصان والحمار فأنهضهما وجاء بهما إلى سيّده ، فخجل دون كيشوت من عاقبة التحدّى ، ولم يشأ أن يعود إلى مضيفيه ، فركب حصانه وركب سانشو حماره وسارا فى صمت وسكون . . .





٢٥

عرّج بطلنا وتابعه على غابة صغيرة ناضرة يجتاز سندسها جدول ماء صاف ، فوقفا عنده وأطلقا الحصان والحمار يرعيان الكلأ ، وأقبلا يشربان من الماء الصافى ، ويغسلان وجهيهما وأيديهما حتى انتعشا ، ثم تمدّدا قليلاً على العشب ، وخفّ سانشو بعد ذلك إلى خرجه فجلب منه الزّاد ، ومدّ السماط ، وأخذ يحدّق فى سيّده وعيناه تفصحان عن جوعه وشهوته ، فقال له دون كيشوت :

— « كُلْ . . . كُلْ . . . فإن أحزانك يبدّدها الأكل ، أما أنا فلا يبدّد أحزانى إلا الموت ، فهو أمنيتى الوحيدة عندما أفكر فى أن

دون كيشوت المغوار الطّائر الصّيت ، الذى يجلّه الأمراء وتعبده الجميلات قد مرّت من فوقه ثيران قذرة . فيا للعار ويا للشّنار ! وسوف أعتمد على الجوع فى قطع حبل حياتى ما دام الألم لا يكفى فى تقصير الأجل » .

— « ماذا تقول يا سيّدى ؟ إن ميتة الجوع لأشنع الميتات » .

وقضى دون كيشوت وتابعه الليل راقدين على العشب ، واستأنفا السّير فى الصّباح حتى لاحت لأعينهما مدينة برشلونة الجميلة ، وطرقت مسمعيهما عندما وصلا إليها أصوات الفرح والغبطة ، وألحان المزامير والنّايات ، ممّا يدلّ على أن سكّانها يحتفلون فيها بعيدٍ من الأعياد .

وكان اليوم صحواً جميلاً ، والشّمس ترسل أشعّتها الذهبيّة على المدينة والبحر ، فتغمرهما بوشاح من الذّهب . وكانت السّفن مرفوعة الأعلام ، تطلق مدافعها تحيّة للعيد . وكان الفرسان يملؤون السّاحل ويقومون بمختلف ألعاب الفروسيّة .

بهرت هذه المناظر دون كيشوت وتابعه فخيّل إليه أنه فى حلم جميل صحا منه على صوت أحد الفرسان يقول له :

— « أهلاً وسهلاً ومرحباً بمشعل الفروسية وشهابها السّاطع . إن مدينتنا لتعتزّ وتفتخر باستقبال " دون كيشوت العظيم " » .

ولم يترك الفارس ، وكتيبته من حوله ، مجالاً لدون كيشوت يردّ فيه على التحيّة بل أحاط به الفرسان من كل جانب ، وألّفوا موكباً سار به

إلى وسط المدينة تتقدّمه الموسيقى ويتبعه جمهور غفير من الناس ، حتى وصل الموكب إلى دار أحد الأشراف الأثرياء وكان رجلاً يحبُّ المرح ، فاستقبله فيه أحسن استقبال ، واستضافه فى جناحٍ من قصره ، وشمله بآيات التّعظيم والترحاب. وحدّث ولا حرج عن فرح سانشو فقد ذكّره هذا التّكريم قصر دون دياج أو قصر الدّوقة .

وبعد مأدبة الغداء ، قاد صاحب القصر دون كيشوت وجماعة من ضيوفه إلى غرفة فسيحة لم يكن فيها إلا تمثال من الشّبَه (البرونز) موضوع على عمودٍ من الرّخام ، فقال لدون كيشوت :

— « سيّدى الفارس ! إن هذا التمثال الذى تظنّه رأس أحد الأباطرة هو من صنع ساحرٍ بولونى استضفته يوماً واشتريت منه بألف قطعة ذهبية هذا التمثال الذى يتكلم ويردّ على جميع الأسئلة ، فإذا أحببت فامتحنه ، وسأمهد أنا لك السّبيل » . والتفت إلى التمثال فقال :

— « أيها التمثال ! قل لى بماذا أفكّر الآن ؟ » فأجاب التّمثال بصوت واضح مسموع دون أن يحرّك شفتيه :

— « أنا لا أخترق حُجُب الأفكار » .

فعقدت الدّهشة لسان دون كيشوت وسانشو معاً ، واستأنف صاحب القصر الكلام فقال :

— « أيّها التّمثال كم عددنا فى هذه الغرفة ؟ » فقال :

— « أنت وزوجتك واثنان من أصدقائك وسيدتان وفارس مشهور يدعى دون كيشوت وتابعه سانشو بانسا » .

فاستولت الدهشة على جميع الحاضرين، وأراد دون كيشوت أن يوجه هو الأسئلة إلى التمثال فقال :

— « أيها التمثال قل لى: أكلٌ ما رأيت حقيقة هو أم خيال ؟ أينفك السحر عن حبيبتى الأميرة ؟ » فقال التمثال :

— « إن ما تسأل عنه موضوع مناقشة طويلة لا أود أن أتداخل فيها . فحبيبتك ستعود إلى ما كانت عليه » . فقال دون كيشوت :

— « كفى . كفى . هذا حسبى » . وتقدم سانشو إلى التمثال وسأله :

— « يا سيدى التمثال ! أأصبح حاكماً ؟ أأرى زوجتى وأولادى ؟ »

— « نعم ستحكم فى بيتك وترى زوجتك وأولادك » .

فلم يعجب سانشو هذا الجواب ، وقال إنه يستطيع أن يجيب بمثل هذا ولو لم يكن ساحراً . فطيب صاحب القصر خاطره ، وطلب من جميع الحضور كتمان السر . ولكن السر شاع وذاع فى أطراف المدينة ، مما اضطر صاحب القصر إلى أن يذهب إلى محكمة التفتيش، ويشرح لأعضائها خدعة التمثال ويقول لهم إن القاعدة تخترقها أنبوبة تصل إلى غرفة تحت غرفة التمثال، وإن فيها رجلا توصل له تلك الأنبوبة الأسئلة فيجيب عنها بما يحلو له .



٢٦

اقترح صاحب القصر على دون كيشوت فى اليوم التّالى أن يزور السّفن الرّاسية فى الميناء،فرحّب سانشو بهذا الاقتراح وتبع سيّده إلى الميناء . وكان القبطان العام قد أبلغ بخبر هذه الزّيارة ، فلم يكد يرى دون كيشوت مقبلاً يحفّ به موكبه حتى أمر بقرع الطّبول وإطلاق المدافع .

وكان على الشّاطئ مركب صغير مغطّى بالأبسطة الفاخرة ومنثورة فيه الوسادات المخمليّة، فحمل دون كيشوت وصحبه إلى السّفينة الكبرى . فلما صعد دون كيشوت فى ظهر السّفينة،رأى البحّارة مصطفّين فهتفوا

له طويلاً ، وجاء القبطان إليه فقبّله وحيّاه بخطاب ردّ عليه دون كيشوت ردًّا جميلاً ، ثم سارت السّفينة إلى نزهة فى البحر .

وهكذا قضى دون كيشوت ستّة أيام متنقّلا من تكريم إلى تكريم ، ومن مأدبة إلى أخرى ، حتى ملّ السّكون وقرّر استئناف العمل فى المهمّة الكبرى التى وقف نفسه لها ، فخرج ذات صباح وهو فى كامل عُدّته وسلاحه ، تخالجه فكرة السّفر ، فامتطى حصانه وذهب يستنشق نسيم البحر على الشّاطئ ، يتبعه مضيفه وأصحابه . فبرز له فجأة فارس مقنّع مدجّج بالسّلاح من رأسه إلى أخمص قدميه ، وقد اعتلى ظهر جواد أصيل ، وأمسك بشماله تُرساً عريضاً رسم فوق صفحته قمر منير . فوقف أمام دون كيشوت وقال له بصوت عالٍ كله ادّعاء وفخر :

ـ « أيها الفارس الشهير ! إن فارس " القمر الأبيض " يحدّثك ولا إخالك إلا سمعت بى ، فشهرتى ذائعة طائرة ، وقد جئت اليوم أتحدّاك ، وأطلب إليك أن توافق معى على أن مليكة فؤادى أجمل وأبهى من فاتنة لبّك أميرة توبوزو ، فإن اعترفت بما أقول ، حقنت دمك وجنّبتنى مهمّة قتلك ، وإذا أبيت إلا القتال فاسمع شروطى : تنزوى فى منزلك مدّة سنة كاملة دون أن تحمل سلاحاً إذا أنا قهرتك ، وإن أنت غلبتنى تركت لك سلاحى وجوادى وحياتى ومجدى ، وإنى أمنحك يوماً كاملا تفكّر فيه مليًّا وتجيبنى عما طلبت » . فقال دون كيشوت مدهوشاً

وثائراً من جرأة الرجل ووقاحته :

ـ « يا فارس القمر الأبيض ! إنك ما رأيت قطّ أميرة توبوزو ، فنظرة عَجلى إليها كانت تقنعك أنها فوق مستوى الجميلات ، وإنى لمشفق عليك وقابل بشروطك ، غير أنى أهب لك مجدك فلست فى حاجة إليه ، وليكن القتال فى هذه السّاعة فخذ حذرك وأشرع رمحك » .

ولم يشكّ دون أنطونيو ، وهو اسم صاحب القصر الذى استضاف دون كيشوت ، أن المسألة مغامرة مدبّرة فتبسم إلى أصحابه وسألهم بعينيه عن الأمر ، فما كان فيهم من يعرف فارس القمر الأبيض ، ولا درى بالمغامرة المدبَّرة فأسقط فى أيديهم ،وتحيّروا أيمنعون هذا القتال أم يتركون الأمور تسير فى أعنّتها ، ولكنّهم أبطأوا فى التّفكير فالفارسان كانا قد تباعدا واستدار كلٌّ منهم وكرّ على خصمه .

وكان جواد الفارس الغريب أصيلا قويًّا لا تقاس إليه عشرة جياد من طراز « السكّيت » فانقضّ صاحبه كالصاعقة على دون كيشوت ، ورماه هو وحصانه إلى بعد عشرين خطوة فوقعا متعثّرين على الرمال . وتقدّم الفارس من دون كيشوت وسدّد رمحه إلى عينيه ، ولم يكن قد استعمل الرُّمح عند انقضاضه عليه فقال له :

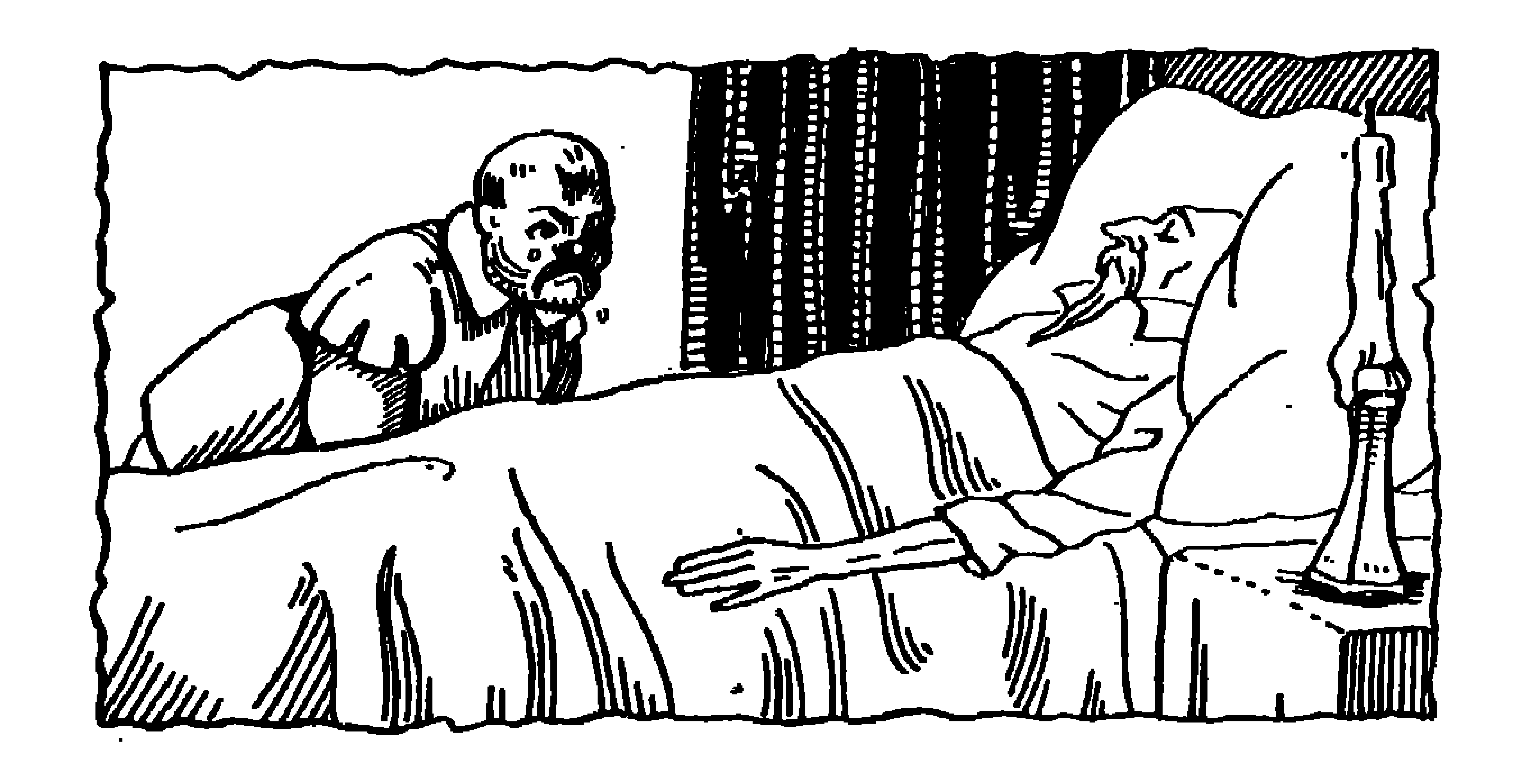
ـ « أنت مائت إذا لم تذعنْ إلى ما طلبت منك » . فجمع دون كيشوت قوته الخائرة وقال فى لهجة المنتحب :



— « إن النكبة التي أصيب بها فارس أميرة توبوزو لا تجرّد الأميرة من جمالها ، فهي أجمل نساء العالم على الإطلاق ، فهيّا انتزع مني الحياة فالموت نعمة مَنْ فَقَدَ الشرف » .

وبعد سماع هذا الكلام ثنى الفارس الغريب عنان جواده ، وانطلق به إلى المدينة ، فجرى دون أنطونيو وراءه وتتبّع خطواته ، في حين جرى أصحابه ، وفي طليعتهم سانشو ، إلى دون كيشوت المسكين ونقلوه إلى قصر مضيفه . . .





٢٧

لحق دون أنطونيو الفارس الغريب خطوةً خطوة حتى رآه دخل أحد المنازل فدخل وراءه ، فالتفت إليه هذا وهو يبتسم وينزع عنه سلاحه وقال له :

— « أعرف يا سيّدى لماذا تتبعنى ، فأنت تريد أن تعرف من أنا فلن أكتمك اسمى : أنا سمسون كاراسكو من قرية دون كيشوت . إن جنون هذا الرجل الشريف الذى نحبّه جميعاً ، قد حملنى على ركوب هذا المركب بعد أن اتّفقت عليه مع نفرٍ من أصحابه ، فقد رأينا أن الرّاحة والعزلة هما الدّواء الوحيد لشفائه من جنونه ، فتزيّيت فى زىّ فارس

تائه محارب لأقهره واضطرّه إلى الرّجوع إلى منزله، فنجحت والحمد لله ، فأناشدك الله يا سيّدى أن لا تذيع ما أسرّه إليك، فلن تسلم إذا أذعته من الحزن والنّدم على أنك حُلْتَ دون شفاء رجل طيب القلب ، شريف العنصر ، كريم الأخلاق » . فقال أنطونيو :

ــ « إن عملك الجليل يا سيّدى سيحرم النّاس متعة عظيمة، فدون كيشوت العاقل لا يساوى دون كيشوت المجنون . . . ولست أظن أن محاولتك ستنجح فى شفاء رجل تأصّل فيه الجنون ، وكيفما كان الأمر فإنى سأحفظ السر الذى استودعتنى إياه ، وأضع نفسى تحت تصرّفك فى كل ما قد تحتاج إليه » .

فشكره كاراسكو وافترق الرّجلان، فعاد دون أنطونيو إلى قصره ورجع كاراسكو إلى قريته .

وكان دون كيشوت فى ذلك الوقت مستلقياً إلى السرير ، وقد تملّكه حزن لا يوصف ، وقام إلى جانبه سانشو يحاول أن يعزّيه ويسرّى عنه بقوله :

ــ « تشجّع يا سيّدى واحمد الله على أنك سليم الضّلوع والعظام . يجب علينا ، نحن بنى البشر ، أن نقبل الحياة على علاّتها ، وأن نستغنى ما أمكن عن الأطبّاء فلست فى حاجة إليهم ، وستشفى عن قريب ونعود إلى قريتنا ، ونحيا فيها حياة هادئة جميلة، وسترى يا سيّدى أن السّعادة

ليست وقفاً على المغامرات» .

وظلّ دون كيشوت ستّة أيام طريح الفراش ينفخ فيه حديث سانشو روح النّشاط والهمّة، ويعتنى به دون أنطونيو وزوجته كلّ العناية . وفى نهاية الأيّام الستّة ، استأذن مضيفه فى الرّحيل فودّعه وأهل بيته وداعاً حارًّا صادقاً، وركب حصانه وألقى بسلاحه جانباً فحمله سانشو على حماره ، وتبع سيّده ماشياً ، وسارا معاً فى طريق القرية عائدين إليها عودة القائد المنكسر المغلوب .

وبقيا يومين كاملين يحثّان السّير حتى وصلا إلى تلّ أشرفا منه على القرية فركع سانشو وقال :

— « يا وطنى العزيز ! ستلقى ثانية ابنك سانشو فاحتضنه واحتضن سيّده دون كيشوت الباسل الذى يعود إليك مغلوباً ولكن اسمه سيكون لك مناط السّعادة والفخر » .

ودخل الرّجلان القرية ، فقابلا ، أول مَنْ قابلا ، قسّيس القرية وكاراسكو وكانا قد خرجا للنزهة ، فسارعا إلى دون كيشوت مبسوطى الذّراع ، فترجّل دون كيشوت وعانقهما عناقاً طويلاً ، وأمسك بيديهما وعاد معهما إلى المنزل ووراءه كوكبة من الأطفال يصيحون :

— « هذا هو السيد دون كيشوت . . . هذا هو سانشو بانسا . . . »

فسمعت زوجة بانسا صياح الأطفال فخرجت تستقبل زوجها ،

فلمّا لم تره فى موكب حاكم تساءلت قائلة :

ـ « ما هذا يا رجل ؟ أين مركبتك ؟ وأين حاشيتك ورجالك ؟ أتعود مشياً على الأقدام ؟ » فقال لها سانشو :

ـ « نعم يا زوجتى العزيزة ، ولكن هذا لا يمنعك من تقبيلى فإنى قد جئتك بمالٍ كسبته بعرق الجبين ». فقالت زوجته :

ـ « ما أشوقنى إليك يا زوجى العزيز . . . تعال تعال سريعاً إلى المنزل فالأولاد فى انتظارك » . . .

ودخل سانشو وحماره المنزل فخفّ بنوه وبناته إلى استقباله وتقبيله وتقبيل حماره . . .

وكانت ابنة أخت دون كيشوت ومدبّـرة المنزل قد خرجتا تستقبلان دون كيشوت والدّنيا لا تسعهما من الفرح ، فحكى لهما كيف غُلب وقُهر ، وكيف أقسم أن لا يمسّ سلاحاً مدّة عام كامل ، فحاول القسّيس وكاراسكو أن يواسياه ولكن بلا جدوى فقد تملّكه حزن بعيد القرار .

وبعد قليل فارقه صديقاه وأوصياه أن يعنى بصحته ، وأن يتلهّى عن شؤون الحياة ، فوعدهما بذلك وعداً جادًّا أكيداً ولكن حزنه كان يزداد فى جوانحه .

مضت على دون كيشوت عدّة أيام وهو ملتزم الصّمت لا يأبه بشىء من الأشياء ، فلا ينام ولا يأكل ولا يتذمّر ، وكان يؤثر العزلة

ليستسلم إلى التّفكير ، وليخفى العبرات التى كانت تملأ جفنيه . وعند ما كان سانشو يزوره ويسمعه نكاته ومُزاحه ماكان يردّ إلابابتسامة خفيفة.

وهكذا سار دون كيشوت سيراً سريعاً إلى القبر ، فقد أصابته حمّى شديدة طرحته فى الفراش . وتوالى قسّيس القرية والحلاّق وكاراسكو يعودونه كل يوم ، أمّا سانشو الطيّب القلب فكان ملازماً له فى الليل والنهار . وأفتى طبيب القرية أن الحزن العميق هو سبب العلّة ، فحاول سانشو أن يرفّه عن سيّده بحكاياته وقصصه، فكان المريض يستمع له ويغمره بنظرات العطف والحنان، ويفهمه بها أنه يشكر له حسن نيّته ...

وتمشّى الدّاء فى جسم دون كيشوت حتى قطع الطبيب الأمل من شفائه ، فأدرك دون كيشوت أن ساعته قد اقتربت فنادى ابنة أخته والمدبرة وقال لهما :

— « يا ابنتىّ العزيزتين ! اشكرا الله على أنه منحنى اليوم أعظم نعمة من نعمه الجليلة » . فقالت ابنة أخته :

— « يا خالى العزيز ! ماذا تعنى ؟ » فقال دون كيشوت :

— « إنه منحنى أثمن ما يمنح للإنسان . إنها المنحة التى تستطيع وحدها أن توفّر للإنسان قليلاً من الرّاحة فى هذه الدنيا ، وتساعده على نيل الثّواب فى الأخرى عن فضائله وأعماله المبرورة . . . وهذه المنحة العظيمة هى العقل : لقد كنت فقدت عقلى يا ابنة أختى باستسلامى ،

فى أوقات الفراغ ، إلى قراءات سخيفة ، وها هى ذى السماء تعيد إلىّ اليوم عقلى المفقود فإنى أشكرها أجزل الشكر ، وإن كنت لن أتمتّع به طويلاً ، وسأغتنم فرصة هذه الدّقائق القصيرة لأكفّر عن متاهات الماضى ، ولأصنع الخير الذى لم أصنعه . استدعيا لى صديقى القسّيس وكاراسكو المثقّف والسيّد نقولا الحلاّق وصاحبى الأمين سانشو لأستغفره عن إشراكى إياه فى هذيانى .

والتفت فإذا أصدقاؤه الأربعة جاءوا يعودونه فقال لهم :

« يا أصدقائى ! دعوتكم لأطلب منكم أن تهنّئونى على أنى لم أعد دون كيشوت دى منشا ، فأنا ألونزو كيكسانو ، الذى كانوا فيما مضى ينعتونه بالرّجل الطيّب . لاتروا فىّ بطلاً من أولئك الأبطال الخياليّين ، بل جاركم وصديقكم العزيز الوفىّ ، وأخاكم الذى كان قد فقد عقله واستعاده فى ساعته الأخيرة ، لكى يندم ويأسف على ما قدّمت يداه . فتفضل أيّها القسّيس الجليل واستمع لاعترافى بخطاياى ! وأنتم يا سادة تفضّلوا فى هذه الأثناء باستدعاء موثّق العقود لكى يسجّل وصيتى الأخيرة».

سمعه الحاضرون فى صمت وألم ، وأدرك سانشو أن سيّده يلفظ أنفاسه فأجهش بالبكاء ، فرجا المريض أن يتركه قليلاً مع القسّيس ، فأفضى إليه بمكنونات صدره فى ثوان معدودات فقد كان طاهر الذّيل صافى القلب . ثم جاء موثّق العقود فاستجمع دون كيشوت قواه ، وجلس فى سريره وأملى

عليه ما يلى :

« أوصى لصديقى سانشو الذى كنت فى أيّام الجنون أسميه تابعى بعثى قطعة ذهبية تؤخذ من مالى الحرّ ، وأمنع ورثتى من أن يناقشوه الحساب عن المبالغ التى عهدت إليه فيها أيام صحبنى فى رحلاتى وأسفارى ، وقد كنت أرجو أن يعود منها بثروة طائلة . . . » فقاطعه سانشو باكياً وأراد أن يمنع موثّق العقود من الكتابة وقال :

— « لا يا سيّدى إنك لن تموت ، فمثلك لا يمكن أن يموت ، فاسمع نصيحتى يا سيّدى واطرد هذا الغم الذى قادك إلى مثل هذه الحال وعش طويلا . فإنى أعدك أن نرحل إلى حيث تشاء ، وسواء لدىّ أكنتُ راعياً أم فارساً أم تابعاً ما دمت معك ، فإن عزّ عليك السّلوان والعزاء عن هزيمتك ، فتلك غلطتى لأنى لم أسرج حصانك إسراجاً محكماً و . . . » فقاطعه دون كيشوت فى رفق وقال :

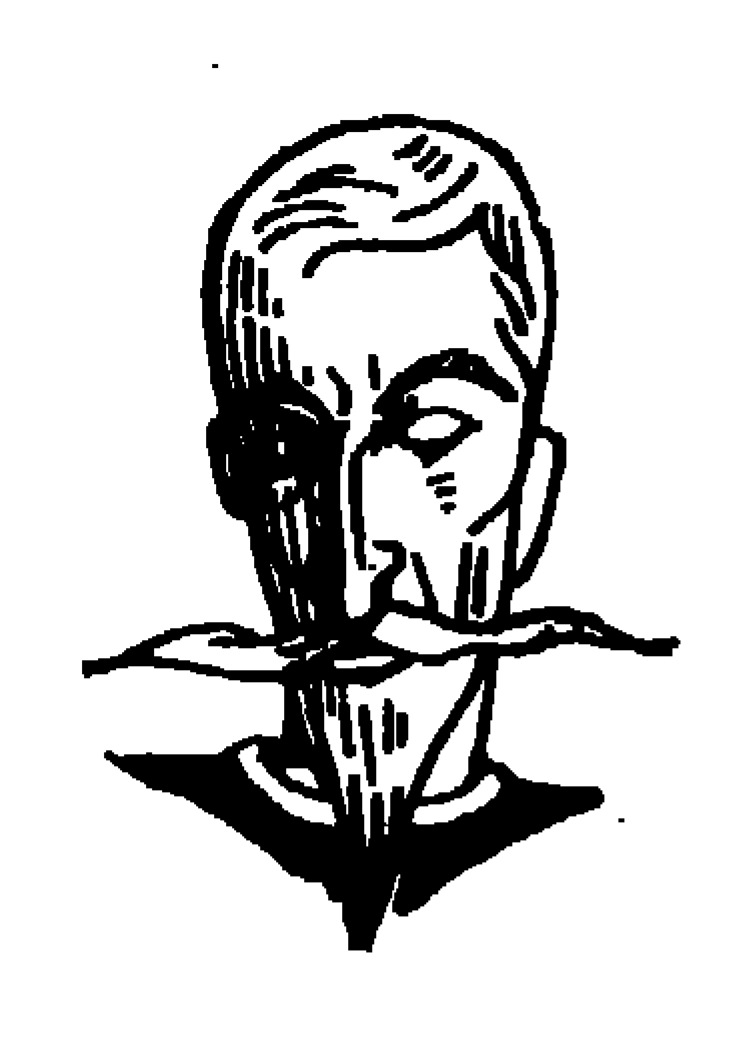
« أشكرك يا سانشو ، لقد رأيتنى زمناً طويلاً فاقد العقل حتى أصبحت لا تصدّق أنى عدت عاقلاً رزيناً ، فلننس أخطاءنا الماضية ولا ننس صداقتنا القديمة ، فأنت تصغى إلى صديقك لا إلى دون كيشوت ، دعنى أتمّ وصيتى يا ولدى واقبل عذرى على النّصيب المتواضع الذى أتركه لك » .

ثم تابع إملاء وصيته فجعل ابنة أخته وارثته وكلفها أن تدفع إلى

مدبّرة المنزل راتباً شهريّاً ، وأوصاها بتقديم بعض الهدايا إلى كاراسكو والسيّد نقولا وإلى حضرة القسّيس الذى عيّنه منفذاً لوصيته .

وطلب من الحاضرين أن يصفحوا عنه إذا كان قد أساء إليهم فى فترة جنونه .

وفى مساء ذلك اليوم أسلم روحه إلى باريها ، فَشُيِّع بالحسرات والدّموع . . .



رقم الإيداع	١٩٩٣ / ٢٧٠٣
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-3981-X

١ / ٩٢ / ١٨٣
طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

أولادنا

مجموعة طريفة يختص كل كتاب منها بقصة واحدة تفيض بالمغامرات والحوادث العجيبة المملوءة بآيات البطولة والشجاعة والإقدام.

ظهر منها:

١ - عمرون شاه
٢ - مملكة السحر
٣ - كريم الدين البغدادى
٤ - آلة الزمن
٥ - الأمير والفقير
٦ - كتاب الأدغال
٧ - بينوكيو
٨ - نبوءة المنجم
٩ - روبن هـود
١٠ - دون كيشوت
١١ - ايفنهـو
١٢ - جزيرة الكنز
١٣ - كنوز الملك سليمان
١٤ - سجين زندا
١٥ - الزنبقة السوداء
١٦ - مون فليت
١٧ - مقبرة الأفيال
١٨ - الربان بلود
١٩ - تيودورا
٢٠ - أوليفر تويست
٢١ - دافيد كوبر فيلد
٢٢ - فى مهب الريح
٢٣ - الفخ الذهبى
٢٤ - عودة المحارب
٢٥ - حصان طروادة
٢٦ - نساء صغيرات
٢٧ - توم سوير
٢٨ - الأربعة الذين سرقوا الزمن
٢٩ - الربان الجرىء
٣٠ - العم نعناع
٣١ - أم حنـان
٣٢ - كوخ العم توم
٣٣ - سميراميس
٣٤ - بنت قسطنطين
٣٥ - صديقى فوق الشجرة
٣٦ - الطفلة المدللة

